مفهوم الأمة الوسط

مفهوم الأمة الوسط

تأويل جديد

بقلم الدكتور

توحـــيد الزهـــيرى

الوســطية والبحــث عن هــوية

(من نحن ؟ وما هى رسالتنا ؟!)

البحث الفائز بجائزة جماعة الوسطية عام ٢٠٠٢م

بقلم الدكتور

توحــيد الزهـــيرى

مفهـوم الأمـة الوسـط
(تأويل جديد)

مدخـل

على أعتاب عصر جديد يموج بالفتن ، حيث انطلق إعصار العولمة مهدداً بتدمير كل شيء يقف فى طريقه . . فى هذه اللحظة التاريخية المفعمة بالفوضى والاضطراب ينفجر سؤال الهوية ، ويكون لزاماً علينا — نحن المسلمين — أن نقوم لنسائل أنفسنا " من نحن ؟! وما هى رسالتنا؟!!".

إننا على شفا عصر من الحروب الطاحنة والصراعات المحتدمة ، حروب وصراعات يفرضها "الآخرون" شئنا أم أبينا ، فأوجب الواجبات علينا — نحو أنفسنا — أن نصحو من غفلتنا ، وأن نتأمل فى مسيرتنا ، لنعرف أخطاءنا ، ونتحسس مواضع خطانا على الطريق القادم — لا محالة — قبل أن نهوي فى المهالك.

إننا فى أمس حاجة إلى وقفة مستبصرة ، وأقدامنا لم تزل على الشاطئ ، وقلوبنا وعيوننا تبحث عن سفينة النجاة ، قبل أن تأتى الهاوية ، ويغرقنا طوفان التغريب فى أمواجه العاتية.

من أجل تلك الوقفة المنشودة ، وفى سبيل الوصول إلى سفينة النجاة ، كانت هذه الدراسة الموجزة فلعلها تضيء الطريق لمن أنصت إليها وألقى السمع وهو شهيد !!. *

توحيد الزهيرى

* كتبت هذه الدراسة عام ٢٠٠٢ وكانت في الأصل بحثاً قدم إلي جامعة الوسطية ونال الجائزة الأولى في موضوع الوسطية والبحث عن هوية.

الباب الأول

الدين هو بذرة الحضارة وجذر الهُوِيَّة

(أ) اختلاف الحضارات باختلاف الأديان

فى مطلع القرن العشرين ، قاد "أتاتورك" على رأس النخبة التركية حملة "تغريب" دولة الخلافة الإسلامية ، طامحاً فى أن تكون تركيا دولة أوروبية حديثة لتلحق بركب "الغرب" المتقدم ، وتنفصل عن الشرق الإسلامى المتخلف.

ألغى الخلافة الإسلامية لتصبح تركيا دولة "قومية" ، أساس الانتماء إليها الجنس أى السلالة ، فهى الكيان المعبر عن السلالات أو القبائل التركية ، نابذاً رابطة الأخوة الدينية التى كانت تجمعهم مع كل المسلمين باعتبارهم أبناء "دين" واحد ، أى المؤمنين بنبوة النبى العربى "محمد" (ﷺ) التى عبر عنها القرآن بقوله: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾[1].

واستبدل "أتاتورك" بحروف اللغة العربية الحروف اللاتينية ، ليقطع صلة الأتراك بتراثهم الإسلامى وتاريخهم ، إذ لم يكن للجنس التركى أى ذكر فى التاريخ "الحى" إلا بعد اعتناقهم الإسلام ، واكتسابهم الحروف العربية يرسمون بها

(١) سورة الحجرات الآية (١٠)

لعل فى توجيه الخطاب القرآنى إلى "جماعة" يكون من عملها القيام "بالإصلاح" بين الطوائف والفرق الإسلامية المتقاتلة إشارة واضحة إلى ضرورة قيام "هيئة" تعبر عن مجموع الأمة الإسلامية أى جميع الدول الإسلامية ، ويكون لها الصلاحيات والقدرات والوسائل التى تكفل لها فرض شروط "الصلح" العادل مثل: مؤتمر الدول الإسلامية أو المحكمة الإسلامية العالمية ، أو منظمة العدل الإسلامية ، أو ما شئنا من أسماء تنفيذاً لهذا الأمر الإلهى الوارد فى الآية ، والمعبر عن وحدة المسلمين التى كان يرمز إليها منصب "الخلافة".

لغتهم التركية ، ويسجلون بها تراثهم ، وصار الأتراك مثل الأوروبيين من أهل الشمال أى يكتبون من يسار الصفحة إلى يمينها ، وفرض عليهم "أتاتورك" أن يتشبهوا بالأوروبيين ، فأمرهم بترك الطربوش وارتداء القبعة (البرنيطة) فوق رؤوسهم ، وأمر الرجال بحلق اللحى والنساء بكشف الوجوه والرؤوس ، بل أمر أن ينطلق الآذان للصلاة باللغة التركية ، ولولا خشية الثورة الشعبية العارمة لألغى الصلاة ، أو على الأقل أمر بتلاوة القرآن باللغة التركية ، ثم انتهى الأمر بإلغاء الآذان ! !

وواصلت النخبة التركية التى غُسِلَتْ من أدمغتها الثقافة الإسلامية ، وأشربوا فى قلوبهم القيم الغربية ... واصلت طريق "أتاتورك" ، فألحقت تركيا بحلف شمال الأطلنطى (الناتو) ، الذى زرع على أرضها قواعده العسكرية وصارت "تركيا" – التى كانت أقوى إمبراطورية فى العالم – مجرد حذاء مريح فى قدم السياسة الغربية التى تقودها أمريكا ، وتوددت زعيمة العالم الإسلامى السابقة إلى إسرائيل إلى حد الاشتراك معها فى مناورات عسكرية ، متحدية مشاعر المسلمين – الأخوة المؤمنين سابقاً – متقربة إلى السيد الأمريكى المتغطرس ، لعلها تروق فى عينيه وينظر بعطف إلى طلبها اللحوح بالانضمام إلى السوق الأوروبية المشتركة ، وتحقق بهذا حلمها العصى .. أن تصبح عضواً فى الجماعة الأوروبية ، إلاّ أن الدول الأوروبية الغربية رفضت بالإجماع طلبها وكان هذا الرفض ضربة مهينة للكرامة التركية التى مرغت أنفها فى تراب المذلة للغرب دون جدوى.

يصف الدكتور "صمويل هنتنجتون" فى دراسة: "صدام الحضارات : الغرب فى مواجهة الآخرين"[2] المأساة التركية وصفاً بليغاً ، لا يخلو من شماتة متوحشة لا إنسانية قائلاً: "لقد خسروا زعامة الشرق ، ورفضت أوروبا قبولهم ولو غاسل صحون فى مطابخ الغرب".

ويعلق الأستاذ/ محمد جلال كشك على هذا الموقف بقوله : "أوروبا لا تكتفى فقط برفض إدخالهم (الأتراك) السوق الأوروبية ، وتقبل اليونان ، وستقبل دول شرق أوروبا ، بل إنها أيضاً ترفض وجود الأتراك على أرضها ؛ فالمسلمون البلغار بل والبوسنيون يُذْبَحُون بتهمة أنهم أتراك بصرف النظر عن مدى صحة ذلك ! !

---

(٢) **البروفسور "صمويل هنتنجتون"**
هو أستاذ علم الحكومات ومدير مؤسسة جون أولين للدراسات الإستراتيجية بجامعة هارفارد ، وهذه المحاضرة ضمن دراسة استراتيجية بعنوان "المصالح الأمريكية ومتغيرات الأمن". وقد نشرت عدة مرات كان آخرها فى مجلة الشئون الخارجية يونيو ١٩٩٣ (نقلاً عن كتاب "دراسة فى فكر التبعية" للأستاذ / محمد جلال كشك – مكتبة التراث الإسلامى ، القاهرة – الطبعة الأولى ١٩٩٤) وكل النقول الموجودة فى هذا الباب من تلك الدراسة مأخوذة من الترجمة التى قدمها الأستاذ الكبير / محمد جلال كشك (رحمه الله) فى الملحق الذى أضافه إلى كتابه سالف الذكر تحت عنوان" تعليق على محاضرة صمويل هنتنجتون عن حرب الحضارات".

"الأتراك" الذين هاجروا إلى أوروبا قبل نصف قرن ، يذبحون هم وأولادهم الذين يحملون الجنسية الألمانية .. الآن يفيق التركى أمام اكتشاف خرافة كل ما سمع وصدق عن علمانية أوروبا ، وحرية العقيدة والمجتمع المتكافئ الفرص ، والتعايش مع الآخر ، ووحدة الإنسانية. إن كل ما عليه ليقبله الغرب هو: نبذ دينه وتاريخه وثقافته ولبس البرنيطة ، ومنع تعدد الزوجات ، والكتابة من الشمال إلى اليمين ، وترجمة سخافات سلمان رشدى .. ويفعل ذلك كله فيركله الغرب بحذائه ، وها هو يذبح لأنه تركى .. حتى لو كان أكثر علمانية من حليق الرأس الألمانى ؛ الذى يذبحه ورجل البوليس المتستر عليه ، بل هو (التركى) أقل تديناً منهما . . وهذا جزاء كل من صدق خرافة العلمانية[3] والانتماء لحضارة العصر ، بينما فلاسفة الغرب لا يذكرون إلا قرون المواجهة ، ويشحذون سكاكينهم بمداد التعصب التاريخى.."

ويفسر "صمويل هنتنجتون" ما حدث لتركيا – التى يصفها بأنها مشوهة الهوية – بقوله: "إنها توجد فى حضارة وتحاول أن تنتمى لحضارة أخرى". وبيان ذلك أن البشر فى عالمنا المعاصر ينقسمون طبقاً لدراسة "أرنولدتوينبى" للتاريخ إلى ست حضارات مختلفة لم تزل حية. ويقول "هنتنجتون": "إن الخلافات بين الحضارات ليست فقط حقيقية ، بل هى أيضاً أساسية ، فالحضارات تختلف عن بعضها بالتاريخ واللغة والثقافة والعادات ، وأهم من ذلك كله الدين ، فالناس المنتمون لحضارات مختلفة تختلف نظرتهم حول العلاقة بين الإنسان وربه وبين الفرد والجماعة ، والمواطن والدولة ، والزواج والعائلة ، وكذلك تختلف النظرية حول الحقوق والواجبات ، الحرية والسلطة ، المساواة والطبقات..."

---

(٣) **العلمانية :**
تعنى إلغاء سيطرة رجال الدين أى أصحاب الكهنوت على الحُكم ، ومنعهم من التدخل فى الشئون السياسية أو العلمية ، أى كل ما هو خارج عن نطاق العقيدة الدينية وتفسير النصوص الدينية ؛ باعتبار أن لكل مجال من مجالات النشاط الإنسانى أهله المتخصصون فيه ، العالمون بتفاصيله ودقائقه ، ومن ثم فإن "رجال الدين" أصحاب السلطة الروحية مجالهم هو العبادات وتفسير النصوص الدينية ، ولا شأن لهم باتخاذ القرارات السياسية أو الفصل فى القضايا العلمية المثارة فى مختلف العلوم (الزراعة – الطب – الطبيعة – الكيمياء..). فلا توجد علاقة تطابق بين العلمانية والعلم ، كما أنها لا تعنى عدم خضوع المجتمع لأحكام الدين أو عدم تطبيق الشريعة ونبذ الدين ؛ لأن الأمة تختار دينها وترضى – فى مجموعها – بتنفيذ أحكامه باعتبارها القانون الذى يجب أن يُطبق.
ويمكننا تعريف العلمانية فى معناها الصحيح ، وفى حدود هذا المقام الضيق بأنها الاحتكام إلى الشعب فى مجال الحُكم أى هى الديمقراطية ، والاحتكام إلى العقل فى مجال العلم ، أما الاحتكام إلى الوحى الإلهى ففى مجال الدين.
وخير تعريف للعلمانية بمعناها الصحيح هو ما قاله من أوتى جوامع الكلم (ﷺ) **"أنتم أعلم بأمور دنياكم"** . ولكن الفهم الخاطئ الواسع الانتشار فى كتابات "التنويريين" الزائفين فى بلادنا ؛ ضحايا حرب "التغريب" الاستعمارية يجعل من "العلمانية" مرادفاً للإلحاد أو اللادينية والسخرية من العقيدة والاستهزاء بالشرائع والتراث.

"وهذه الخلافات هى ثمرة قرون ، ولن تختفى سريعاً ، وهى أعمق وأهم من أى خلافات سياسية أو أيديولوجية أو حتى خلافات النظم السياسية ، بل إن الخلافات الثقافية والدينية هى التى تخلق الخلافات السياسية".

وفى الوقت الذى تصر فيه النخبة التركية التى قادت بلدها على طريق التغريب على أن تركيا قد صارت دولة غربية ، وتتقدم إلى أوروبا بهذه الصفة لعلها تنال شرف الانضمام إلى الجماعة الأوروبية ، فإن النخبة الأوروبية التى تمثل الثقافة الغربية ترفض قبول تركيا بهذه الصفة "المدعاة" ، ولقد تأكد الأتراك من استحالة انضمامهم إلى السوق الأوروبية المشتركة.

فما هو السبب الحقيقى وراء هذا ؟!

يوضح "تورجوت أوزال" ؛ الرئيس التركى الذى اكتوى بنار الرفض الأوروبى السبب الحقيقى بقوله : "لأننا مسلمون وهم مسيحيون ولكنهم لا يقولون ذلك صراحة". فإذا تذكرنا ما قاله "صمويل هنتنجتون" عن الاختلاف الجوهرى بين الحضارة الإسلامية التى تنتمى إليها تركيا بموجب حكم التاريخ أو الأقدار الإلهية – شاءت النخبة التركية أو أبت – وبين الحضارة الغربية المسيحية التى تنتمى إليها دول السوق الأوروبية المشتركة ، أمكننا بكل وضوح أن نستنتج أن "الدين" هو جوهر الحضارة ؛ لأنه حجر الأساس فى بناء الثقافة التى تعطى الأمة "هويتها" أى شخصيتها القومية.

ولما كان "اختلاف" الأديان هو الاختلاف الجوهرى الذى لا سبيل إلى محوه أو تقليله أو تجاوزه ؛ لأن الأديان كانت وستظل مختلفة ومتمايزة ومنفصلة عن بعضها ؛ ولا يمكن إنسانياً إذابة اختلافاتها أو دمجها فى دين واحد مشترك ؛ فهذا عمل يتجاوز قدرة البشر جميعاً، فهو جدير بالخالق (سبحانه وتعالى) وحده ، لذلك ستظل الحضارات مختلفة. إن الإنسان يمكن أن يكون مزدوج الجنسية ، ولكن من المستحيل أن يكون مزدوج الدين ، أو كما قال "صمويل هنتنجتون" :الشخص يستطيع أن يكون نصف فرنسى ونصف عربى ، بل ويمكنه أن يصبح مواطناً فى البلدين ، ولكن يستحيل عليه أن يكون نصف مسلم ونصف كاثوليكى".

(ب) الدين هو أصل الحضارة

الدين هو أعمق ما فى الإنسان وأبعد ما فيه عن يد التغيير ؛ لأن الإنسان لا يتعرف فى الحقيقة على نفسه ، أى لا يدرك "هويته" إلا من خلال اختياره للإله الذى يعبده وتحديده "للغاية" التى يسعى عبر حياته إلى بلوغها.

ومن اختياره "الإله" وتحديد الغاية من الحياة يتكون الدين فى نفس الإنسان ، أو كما قال القدماء ، "اعرف نفسك تعرف ربك" ، فربطوا بين معرفة النفس أى إدراك "الهوية" وبين معرفة الرب أى الدين ، وإن كان الأدق طبقاً لمفهومنا أن نقول "اعرف ربك تعرف نفسك" ، فمعرفة الرب ، أى اختيار الإله وتحديد الغاية من الحياة هى وسيلة معرفة الإنسان لنفسه ، أى إدراك "هويته".

من أين جاء العالم ؟! وكيف نشأت المخلوقات ؟!

ما هو الإنسان؟ وما هو مصيره ولماذا ظهر فى هذه الحياة الدنيا ، وأين يذهب أو يختفى بعد الموت؟ وما هى الغاية العليا ؟!

هذه هى الأسئلة الجوهرية التى لم تزل تواجه الإنسان فى كل العصور منذ أن يبدأ فى الوعى بنفسه ، وبالإجابة عليها يدرك "هويته". ولكن الإجابة عن هذه الأسئلة هى التى تُكَوِّن "الدين" ، ومن ثم يصبح دين الإنسان هو مضمون هويته الجوهرى.

ويبدو لنا بكل وضوح أن الإنسان هو الكائن الوحيد على ظاهر هذه الأرض الذى يبحث عن الخلود ، ويرفض من أعماق نفسه أن يتحول مثل غيره من الكائنات الحية إلى مجرد كومة من التراب على قشرة هذا الكوكب ، الذى لم يزل يدور منذ أحقاب موغلة فى القدم حول الشمس ، والذى عاشت فوق ترابه وماتت ملايين لا تحصى من المخلوقات دون أن تترك سوى بقايا أجسادها.

إن الإنسان يدرك – فى أعماق ذاته – أنه جدير بالخلود ؛ لأن فيه "سر" يرفعه فوق غيره من مخلوقات الأرض ، وأن ذلك "الشىء المقدس" الذى تحتويه نفسه يخوله الظفر بالخلود ويمكنه من قهر الموت ؛ ذلك العدو اللدود للحياة ، ولكنه لا يحيط علماً بكُنه ذلك "السر" ، أو ذلك الشىء "المقدس" الكامن فى أعماق ذاته ، ولذلك يظل الإنسان يبحث محاولاً معرفة "سر" ذاته أو استكشاف "كنه" نفسه ، ومن ذلك البحث تتولد المعرفة ؛ العلم والفن والفلسفة ، وتنشأ وتنمو الثقافة ، وتتكون وتتطور المؤسسات والنظم الاجتماعية التى تجسم إجابة "الأمة" عن تك الأسئلة الجوهرية والتى تمثل محاولتها للظفر بالخلود ، أى تعبر عن ردها على التحدى الذى يهددها بالفناء.

فعندما تثار تلك الأسئلة الجوهرية على نطاق واسع يشمل شعباً من الشعوب وتشرع "الجماعة" الإنسانية أو المجتمع البشرى فى الإجابة ، تتعرف الأمة على نفسها وتتولد حينذاك الحضارة ، ولكن الإجابة عن تلك الأسئلة الجوهرية تعطى

الأمة "دينها". ومن ثم تتولد الحضارة دائماً مع إدراك الأمة "لهويتها". أى مع معرفتها لنفسها التى تعنى بالضبط معرفتها لدينها كما سبق أن أوضحنا.

وتتجلى لنا هذه الحقيقة إذا تذكرنا أنه يستحيل عقلاً تصور نشأة "الحضارة" دون وجود مجتمع إنسانى أى جماعة بشرية متماسكة ؛ يرتبط أفرادها برباط "الانتماء" ويتميزون عن غيرهم بالتآلف والتجانس مع بعضهم ، مع حتمية أن تستطيع هذه الجماعة المحافظة على تماسكها حيناً من الدهر يكفى لنشأة وتطور النظم والمؤسسات الاجتماعية التى تضبط سياق الحياة الإنسانية داخل الجماعة ، وتنظم علاقتها مع غيرها من التجمعات البشرية "الأخرى".

كما يستحيل عقلاً تصور تقدم المجتمع الإنسانى إلا بوجود "مثل أعلى" يلهم أفراد الجماعة ، ويحثهم على السعى للإقتراب منه ، أو فى كلمات أخرى لابد من الشعور الجماعى بوجود رسالة أو غاية مقدسة تتحمل الأمة شرف أدائها أو شرف السعى لبلوغها.

ولا نحتاج إلى تأكيد أن "الدين" هو الذى يعطى الأمة كل ذلك ؛ فهو الذى يحفظ تماسك الجماعة الإنسانية ، ويحمى استمرارها ، ويخلق التآلف والتجانس بين أفرادها ، كما يقدم لهم المثل الأعلى الذى ينبغى عليهم طواعية أن يقتربوا منه تحقيقاً لذواتهم ويقدم لهم "الرسالة المقدسة" التى يمنحهم شرف إبلاغها. إن الدين هو صانع الحضارة ، أو بالأحرى هو البذرة التى تنبت منها شجرة الحضارة وهذه هى وظيفته التاريخية.

وطبقاً لهذا التحليل فليس أمامنا بموجب العقل وحكم التاريخ إلا البقاء فى حضارتنا التى لم تزل حية ، كما قرر "أرنولد توينبى" أعظم المؤرخين المعاصرين ؛ صاحب الموسوعة الهائلة "دراسة للتاريخ" ، وتابعه فى هذا صمويل هنتنجتون ، وإذا كُنَّا نريد إنجاز النهضة والسير على طريق التقدم ، فليس أمامنا من سبيل إلا إحياء قيم الحضارة الإسلامية الأصيلة ؛ حضارتنا التى لا نستطيع الانسلاخ منها ، ومن ثم فالمطلوب تحديث مجتمعنا بإحداث بعث عربى إسلامى فى مواجهة تحدى الغرب المتقدم الذى يتحفز لسحق قوتنا ، ومحو "هويتنا" ، أى إبادتنا بالإذابة إن عجز عن استئصال شأفتنا ، وأى محاولة من جانبنا لإحداث النهضة فى غير هذا "الصراط المستقيم" محكوم عليها عقلاً بالفشل . بهذا ينطق التاريخ والدين.

(جـ) أساطير تيار التغريب

ولكن هذا الطرح لأزمتنا الحضارية يتناقض جوهرياً مع التصور الذى يقدمه تيار "التغريب" السائد فى نخبتنا الثقافية والسياسية التى بيدها مقاليد مجتمعنا حيث يقوم تصورها الزائف على الأوهام الآتية:

(١) الحضارة الغربية المعاصرة هى الحضارة الوحيدة على الأرض ، أو هى الحضارة الوحيدة الجديرة بالاتباع ؛ فهى المثل الأعلى الذى يجب على جميع البشر الاقتداء به وما من طريق آخر !!

(٢) الحضارة كل لا يتجزأ ، فغير مسموح لنا بالاختيار والانتقاء منها ، فكما نأخذ العلوم والصناعات والآلات من المحتوم علينا أن نأخذ الفنون والآداب والفواحش والخمور والدخان والأمراض التناسلية والاجتماعية ... مكتوب علينا أن نتمثل كل شىء فيها حتى نستطيع أن نتقدم ، وإلا فعلينا أن نبقى فى زمرة المتخلفين وما من طريق آخر!!

(٣) الحضارة المعاصرة لا دينية ، قد أعطت ظهرها لله ، ولم تبدأ فى إنجاز نهضتها إلا بعد أن رفضت "الوحى" ، وانتصرت للعلم ونبذت الدين ، فحبسته فى الكتب والكنائس، وانطلقت فى الدنيا تسير على هواها ولا تحتكم إلا للعقل البشرى ، وبالتالى فقد انتهى تأثير الدين ، فلم يعد له أى دور فى حركة التاريخ وتحريك السياسة ، وما علينا إلا أن نقتفى أثرها فنترك القرآن ونهمل تعاليم الإسلام ؛ لأنها ليست إلا قيوداً على حرية الإبداع تكبل العقل الذى ينبغى أن يتحرر من سلطة النصوص ، وخرافات السلف أو أساطير الأولين ، بل علينا أن نقطع صلتنا بماضينا وتراثنا الذى لم يكن إلا تراث الأوهام والفساد والمظالم.. علينا أن نبدأ من جديد ؛ من نقطة الصفر أو كما قال "سلامة موسى" ملخصاً هذا الاتجاه: "فلنول وجهنا شطر أوروبا".

وعلينا – الآن – أن نفند هذه المزاعم الباطلة حتى نكشف زيف التصور "التغريبى" لأزمتنا الحضارية.

أولاً – الحضارة الغربية المعاصرة ليست هى الحضارة الوحيدة على وجه الأرض ولا هى الوحيدة الجديرة بالإتباع ، ويمكن للبشر أن يتقدموا على طريق آخر عبر محاكاة الغرب ، وأمامنا اليابان التى استطاعت أن تنجز ثورتها الصناعية ، وأن تحقق المجتمع المتقدم ، بل الأكثر تقدماً فى المستوى التكنولوجى من كل بلدان الغرب بما فيه "أمريكا" ؛ زعيمة الحضارة الغربية فى الوقت الراهن.

ولا نقول أن اليابان نجحت فى هذا "مع" احتفاظها ومحافظتها على عقائدها وتراثها وعاداتها إلى حد التزمت بل نقول: إنها نجحت بفضل ذلك ؛ فالمجتمع اليابانى يضرب به المثل فى التمسك بالتقاليد والأعراف المتوارثة منذ آلاف السنين.

إن اليابانى يعتقد أن "الإمبراطور" الجالس على عرش بلاده هو "ابن الشمس" ، وفى كل مصنع وشركة يوجد "معبد" ليتمكن اليابانى – الذى يضرب به المثل فى ارتفاع مستوى الإنتاج وحب العمل – من أداء صلاة.

ولم تقم فى اليابان حركة "تنويرية" تدعو الشعب اليابانى لنبذ أساطير الأقدمين ، وترك خرافة "الإمبراطور ابن الشمس" ، ولم يدع أحد إلى ضرورة التخلى عن اللغة اليابانية المتخلفة ، وهى اللغة التى لم تصل بعد إلى مرحلة حروف الأبجدية ، فاللغة اليابانية تتكون من مئات الآلاف من الكلمات التى ترسم على هيئة أشكال ، ولم يعتبر أحد فى اليابان أن نبذ "عبادة الشمس" عبر طريق الآلهة (الشنتو) هو الشرط لتحقيق الثورة الصناعية ، كما لم يتوهم أحد أن ترك اللغة اليابانية والتكلم بالإنجليزية أو الفرنسية شرط ضرورى للتقدم فى العلوم ، ولم يتبجح أحد بالدعوة إلى أن تحرير المرأة اليابانية من استبداد الرجل اليابانى القاسى هو الباب المفتوح على طريق التقدم. لم تحدُث هذه الخزعبلات "التنويرية" ، بل حَدَّثَت اليابان مجتمعها من خلال حفظها لثقافتها أى محافظتها على "هويتها" القومية ولذلك فقط نجحت.

وعلى طريق اليابان تسير الآن "الصين" ، التى أصبحت الشغل الشاغل والهم المقيم لصناع السياسة الغربية ، الذين يأخذهم الرعب كلما فكروا فى هذا المارد الصينى الجبار . . مجتمع المليار إنسان ، عندما يكمل طريق تقدمه مستنداً إلى تراثه القومى. إن التغريب هو الضربة التى يفكر الغرب فى توجيهها إلى اليابان والصين !!. توجد دراسة عن النهضة الصينية المعاصرة بعنوان "الصينيون المعاصرون"[4] والعنوان الجانبى للكتاب يلخص النتيجة التى نبتغى الوصول إليها فى بلاغة مدهشة ، والعنوان يقول "التقدم نحو المستقبل انطلاقاً من الماضى" !!

يقول صمويل هنتنجتون: "إن النخبة فى بعض البلدان اللاغربية الممزقة الانتماء ستحاول جعل دولهم جزءاً من الغرب ، ولكن فى معظم الحالات سيواجهون عقبات كبرى تعترضهم ، وهناك الذين يحاولون أن يجعلوا دولهم حديثة ، ولكن ليست غربية ، وحتى الآن فإن اليابان هى وحدها التى نجحت فى تحقيق ذلك.

"إن الحضارات غير الغربية ستستمر فى محاولة الحصول على الثروة والتكنولوجيا والخبرات والآلات والأسلحة ، التى هى جزء من التحديث ، وأيضاً سيحاولون المواءمة بين هذا التحديث وثقافتهم وقيمهم التقليدية ، وهذا يعنى أنهم – إن نجحوا فستنمو اقتصادياتهم وقوتهم العسكرية بالنسبة للغرب ، وستتزايد حتى

---

(٤) **الصينيون المعاصرون:**
سلسلة عالم المعرفة الكتاب رقم ٢١٠ المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب – الكويت – يونيو ١٩٩٦م.

تقترب من قوة الغرب ، بينما قيمها ومصالحها تختلف تماماً عن مصالح وقيم الغرب".

والخلاصة ، أن التقدم ممكن ومتاح وتحقق فعلاً عبر طريق غير التغريب ، وأن التحديث وليس التغريب هو المطلوب ، والتقدم يعنى المواءمة بين التحديث وقيم الثقافة الأصلية ، وهذه المواءمة هى التى تنجح فى إنجاز النهضة وتحقيق التقدم ، ولذلك يخشاها الغرب ، كما تشير بذلك كلمات "صمويل هنتنجتون" ؛ لأنها تعنى قيام دول قوية قد تصبح خطراً على مصالح الغرب وقيمه ، ولذلك فهو يسعى إلى منعها بالاستعانة بتيار التغريب حيث يُمَكِّن أصحابه من مراكز صنع القرار فى دولهم المتخلفة ليضمن الغرب تفوقه ومصالحه عن طريقهم ، وهذا هو دورهم الحقيقى المكلفون بأدائه : **إبقاء التخلف فى مجتمعاتهم لصالح الغرب باسم "التنوير"!!!**

ثانياً – ليس من المحتوم علينا قبول الحضارة الغربية بكل إيجابياتها وسلبياتها ، فلا يقول بذلك إلا فاقد للعقل ، مسلوب الإرادة ، مملوء بشعور "الدونية" ، فاليابان تعلمت من أوروبا الفيزياء والكيمياء مثلاً. ولم تكن فى حاجة إلى استيراد عقيدة "الثالوث المقدس" والفداء على الصليب ، ولا قلد الفنان اليابانى فنانى أوروبا.

هل يمكن لعاقل أن ينصح أحد جراحى القلب الشبان بأن عليه لكى يصبح فى علم ومهارة الأستاذ الدكتور/ مجدى يعقوب ؛ جراح القلب الشهير أن يدرس اللاهوت المسيحى وأن يدق الصليب على يده ، لأن الدكتور/ مجدى يعقوب نصرانى؟!

أعتقد أن من ينشرون هذه "الدعوى" الزائفة إنما يمارسون دجلاً فاضحاً ، ولكن الأسوأ منهم أولئك الذين "يعايروننا" باستعمال ثمار وآلات الحضارة الغربية دون الأخذ بكل قيمها ، متغافلين عن أن العلوم والمعارف والصناعات ميراث البشرية جمعاء – رغم دعواهم العريضة بوحدة الحضارة الإنسانية ؟!!

لقد اقتبس الرسول (ﷺ) أسلوب حفر الخندق حول المدينة فى غزوة الأحزاب ، وهو من أساليب الفرس الحربية ، دون أن يكون محتاجاً أو مضطراً لدراسة تعاليم "زرادشت" أو الإيمان بعبادة النار المقدسة.

ثالثاً – الوصف العلمى الدقيق فى كل الكتابات المحترمة ، التى درست الحضارة المعاصرة هو: الحضارة الغربية "المسيحية" ، فهى منسوبة بلسان أهلها إلى الدين المسيحى ، فلا معنى أصلاً لوصفها باللادينية أو اتهامها برفض الدين.

أما أكذوبة ترك الدين ، وأن أوروبا لم تتقدم إلا بعد أن تخلت عن الدين ، فإن إعلان هذه الفرية ليس إلا جهلاً مبيناً ؛ لأن "الدين" – كما بينا – هو أصل الحضارة ، ولا يمكن عقلاً تصور قيام نهضة اجتماعية دون بعث دينى ؛

يحرك فى الإنسان أسمى وأعمق وأقوى ما فى نفسه ، وبهذا نطق التاريخ ، ومع ضرورة الانتباه إلى أن المقصود بالدين – هنا – هو كل ما يقدم للإنسان "رؤية" شاملة ؛ تعطى حياته غاية. وبعض "الفلسفات" قد تكون ديناً بشرياً يعتنقه شعب من الشعوب ، ولا شك أن "الشيوعية" أو "الماركسية اللينينية" كانت بالنسبة للروس البلاشفة "ديناً" بالمعنى الاجتماعى لمصطلح الدين ، وكذلك لكل الأحزاب الشيوعية فى العالم ؛ فإن "الماركسيين" كانوا ينظرون إلى كتب كارل ماركس وتفسيرات "لينين" باعتبارها نصوصاً مقدسة منزهة عن الخطأ ، وأنها فوق مستوى الشك أو النقاش والجدل ، وأنها تقدم لهم الإجابة القاطعة لكل شك عن الأسئلة الجوهرية التى انتبه "وعيهم" بذاتهم عليها ، وتقدم لهم الغاية المقدسة التى ينبغى أن يبذلوا حياتهم فى سبيلها ، وتلهمهم "المثل الأعلى" الذى ينبغى لهم أن يسعوا لبلوغه أو الاقتراب منه. وليس أدل على أن "الشيوعية" كانت ديناً لمعتنقها أن "العروسين" الشيوعيين بعد أن يسجلا زواجهما فى أحد مكاتب التوثيق ، كانا يحرصان على الذهاب إلى قبر "لينين" حيث يحتفلان بزواجهما فى حضور هذا الكائن "المقدس" بالنسبة إليهما ويلقيان ببعض الورود الحمراء على قبره ..!!

إن "أوروبا" لم تتخل عن المسيحية ، بل إنها لم تزل تعتبر نفسها أرض المسيحية ، وترى نفسها حاملة لواء الإنجيل فى العالم ، والمسئولة عن حماية المسيحيين فى كافة أرجاء الكرة الأرضية ، بهذا تنطق الوقائع السياسية المشهودة بأبلغ لسان ، بل تصرخ فى آذان الصم من أهل "التنوير" والتغريب فى بلادنا بأعلى صوت!!

(د) عودة الدين إلى الظهور

عندما انهزم "الدين" الشيوعى وحققت "المسيحية" انتصارها عليه ، واستردت مكانتها ومكانها الشاغر فى قلوب الأوروبيين . عندما حدث هذا زالت قبضة الوحش الشيوعى السوفيتى – الذى كان يحكم الدول التابعة له بالحديد والنار – وانفرط عقد مجموعة الدول الشيوعية ، ومن بينها جمهوريات الاتحاد اليوغسلافى الذى كان يضم شعوباً تدين بعقائد مختلفة ، وراح كل دين يُكَوِّن دولته المستقلة ، فنشأت جمهورية الصرب والجبل الأسود ذات المذهب المسيحى الشرقى (الأورثوزوكسى) وجمهورية كرواتيا ذات المذهب المسيحى الغربى (الكاثوليكى) وجمهورية البوسنة والهرسك التى يدين أغلب سكانها بالإسلام.

وما كانت "أوروبا" ؛ القارة المسيحية التى ترى نفسها أرضاً تنتمى للدين المسيحى لترضى بقيام دولة إسلامية فى قلبها ، فبدأت على الفور مؤامرة تمزيق جمهورية "الإسلام" فى البوسنة والهرسك وإضعافها ، بل تكسيحها حتى لا تقوم لها قائمة. ويمكننا بكل سهولة ووضوح معرفة مواقف الدول السياسية فى أزمة البوسنة بالنظر إلى المذهب الدينى الذى تنتمى إليه الدولة ،فكانت ردود أفعال ومواقف دول العالم عند احتدام الأزمة البوسنية وتواتر أنباء المذابح ، بل المجازر

البشرية التى تعرض لها المسلمون هناك بسبب دينهم تتوافق تماماً مع المذهب الدينى ، إذ كانت المواقف على النحو التالى:-

(١) روسيا ذات المذهب الأورثوذكسى وقفت مؤيدة بكل قوة للصرب الأورثوذكس وذهب المئات من الشباب الروس للقتال فى صفوف الصرب ، وكانت المعارضة الروسية "الشيوعية" الماركسية اللادينية تنتقد الرئيس الروسى "بوريس يلتسن" لأنه لا يؤيد الصرب بالقدر الكافى ، رغم تدفق السلاح والأغذية والمعونات من كل نوع ، حيث كان "يلتسن" يحاول – ولو فى الظاهر – موازنة موقفه بين تأييد الصرب – وفى نفس الوقت – عدم إثارة غضب أوروبا الغربية التى كانت تؤيد الكروات لأنهم كاثوليك مثل شعوب أوروبا الغربية. كان "يلتسن" لا يريد قطع حبال المودة مع أوروبا الغربية ولكن الشيوعيين الذين من المفترض أنهم ماركسيون ملاحدة كانت تأخذهم الحمية الدينية المتأججة لنصرة إخوتهم فى المذهب الأورثوذكسى!

وشاهد العالم كله رجال الدين المسيحى الأورثوذكسى ، وهم يقفون أمام الجنود الصرب المصطفين يباركونهم ويرسمون على رؤوسهم علامة الصليب قبل أن ينطلقوا فى حملة صليبية مقدسة لقتل المسلمين فى البوسنة.

(٢) أما دول أوروبا الغربية الكاثوليكية فقد وقفت إلى جانب الكروات ؛ أخوتهم فى المذهب الدينى ، ولقد أبدى الكثير من الأوروبيين الغربيين الكاثوليك تعاطفهم مع المسلمين فى البوسنة بسبب الفظائع الوحشية التى ارتكبها الصرب الأورثوذكس ضد المسلمين ، ولكن هؤلاء الأوروبيين الغربيين الكاثوليك غضوا الطرف تماماً عن المذابح التى دبرها الكروات الكاثوليك ضد نفس المسلمين.

(٣) وعلينا – هنا – أن ننتبه إلى أن المسلمين البوسنيين الذين انهال عليهم الضرب والقتل من كل صوب ، لم يجدوا عوناً من دول أوروبا "العلمانية" ، فذهبوا يتسولون العون من البلاد الإسلامية خارج أوروبا ، وطاف "على عزت بيجوفيتش" ؛ الرئيس البوسنى على العواصم العربية والإسلامية يستجدى السلاح الذى يقاتل به ، والطعام والعلاج والملابس لشعب البوسنة ، الذى يتعرض للإبادة فى قلب أوروبا "العلمانية" التى يزعم تيار التغريب أنها قد تخلت عن المسيحية ، وأن الدين لم يعد له وجود ولا تأثير فى توجيه وتحريك السياسة!!

إن الديمقراطية تعنى الاحتكام إلى الأمة التى تعد مصدر السلطة والشرعية ، ولذلك فإنها كانت تفرض ترك الشعب فى البوسنة والهرسك ليختار النظام السياسى الذى يرضاه ، ولكن ترك الأمور على هذا النحو النزيه المتفق مع شعار الديمقراطية – التى تزعم أوروبا الغربية أنها حاملة لوائها ورسالتها فى العالم – كان سيفضى إلى نشأة دولة ذات طابع إسلامى فى وسط أوروبا ، ذات الثقافة

المسيحية ، مما يعرض الوحدة الثقافية الأوروبية للخطر ، رغم أن "البوسنيين" ليسوا أكثر من "مسلمين تاريخيين" لا يمارسون الشعائر والطقوس الإسلامية غالباً ، ولا يلتزمون فى حياتهم بالأساليب الإسلامية ، وربما كانوا أكثر أهل أوروبا "علمانية" ، ورغم ذلك فإن أوروبا ؛ أرض المسيحية لم تكن لترضى أن تنبت فيها شجرة مسلمة ، تعيد إلى قلوبهم ذكريات الفتح الإسلامى لأوروبا ، وخطر "التركى" الجبار الذى فتح القسطنطينية ، واستولى على الكثير من بلدان أوروبا المسيحية ، بل أوشك أن يغزو النمسا ، فقامت الحضارة الغربية المسيحية – فى وقتنا الحاضر – تدافع عن نفسها ، ضد هذا الخطر "الوهمى" ، وترد على التحدى الذى كان يهددها بالفناء فى الماضى ، حتى لو لم يعد له أى وجود فى الحاضر.

إن التأمل العميق فى السلوك الأوروبى ، أثناء أزمة "البوسنة" ، يكشف لعين المتدبر كيف نشأت الحضارة الأوروبية المعاصرة ؛ ففى ضوء هذا التحليل نستطيع رؤية أن الحضارة الغربية المعاصرة قد نشأت فى بدايتها ببعث "مسيحى" ، شمل شعوب قارة أوروبا ، ودفع شعوبها للنهوض وإحياء القيم المسيحية ، للدفاع عن نفسها ضد الخطر الإسلامى الذى كان حينذاك يهددهم بالفناء الثقافى تحت ضربات الفتوحات الإسلامية ، التى أخذت تدق عليهم الأبواب. أليست هذه هى نظرية التحدى الحضارى التى فسر بها "أرنولد توينبى" نشأة الحضارة كإجابة أو رد فعل للتحدى الذى يهدد الأمة بالزوال.

وفى نور هذا الفهم يمكننا إدراك "السر" الذى دفع "جورباتشوف" إلى إعلان أن الدور التاريخى لروسيا كان محاربة الإسلام ومنع انتشاره فى أوروبا ، وذلك عندما أراد رئيس الاتحاد السوفيتى السابق أن يقدم أوراق اعتماده لدى الدول الغربية المتقدمة ، لكى تصبح "روسيا" إحدى دول المجموعة الأوروبية ، فمحاربة الإسلام من أجل حماية المسيحية كانت هى التحدى الذى استجابت له شعوب أوروبا بإقامة الحضارة الأوروبية المعاصرة ، و"جورباتشوف" الأوروبى يتكلم مع إخوانه بلغة واحدة يفهمونها.

ولكن "روسيا" أورثوذكسية المذهب ، وتختلف فى تاريخها عن أوروبا الغربية الكاثوليكية البوستانتية ، وإذا أرادت روسيا الاندماج فى الحضارة الغربية الأمريكية الأوروبية المعاصرة ، فيلزم تغريبها أى إعطائها الصبغة الغربية ، حتى تتم عملية إذابتها فى الحضارة المعاصرة أو النظام العالمى الجديد ، وأهم خطوة فى هذا الاتجاه هو محو أو على الأقل التخفيف من حدة الاختلاف الدينى ؛ لأن روسيا كما قلنا ذات مذهب أورثوذكسى ، ولذلك تنتشر الآن فى موسكو جمعيات "التبشير" الإنجيليكانية الأمريكية لتقوم بهذا العمل الهام اللازم لإدماج "روسيا" فى الحضارة الغربية.

(هـ) تصاعد التعصب الغربى ضد المسلمين

إن "الغرب" لم يتخل عن المسيحية ولا يمكنه أن يتخلى عنها ؛ لأنه لو تخلى عنها فإن معنى هذا أنه يرضى بهدم أساس حضارته ، وبالتالى تنحل عرى دوله ومؤسساته السياسية ، وهو ما لا يقول به سوى مجنون مسلوب العقل والإرادة.

ويمكننا أن نقول – هنا – إن تزايد الشك فى صحة المقولات الإنجيلية ، وانتشار الارتياب فى "قداسة" تلك النصوص الدينية ، على نطاق واسع فى أوروبا وأمريكا هو بداية النهاية لدورة الحضارة الغربية المعاصرة ، أعنى دخولها فى مرحلة الشيخوخة التى تعانى منها الآن ومنذ منتصف القرن التاسع عشر.

إن صيحات التعصب ضد المسلمين تتعالى – الآن – فى أوروبا وأمريكا ، وأعمال العنف ضد المسلمين الذين يوصفون بالمتطرفين والإرهابيين تتزايد ، والدعوة إلى تطهير أوروبا وأمريكا منهم تتواتر ، ويصيب كل ذلك إخواننا "التنويريين" أصحاب تيار التغريب بالحيرة والارتباك ، ولا يستطيعون فهم ولا تفسير هذا التعصب "الدينى" من جانب الحضارة التى يتوهمون أنها لا دينية لا تبالى بالعقائد والعبادات.

ولكن هذا التعصب الدينى الأوروبى مفهوم لمن يعلمون كيف تنشأ الحضارات ، ولمن يعرفون أن الحضارة الغربية المعاصرة مسيحية الأصل والطابع ، وأنها نشأت كإجابة على تحدى الحضارة الإسلامية إبان مجدها وتوسعها ، وبعد أن اقتبست شعوب أوروبا من ثمار "التقدم" الإسلامى حينذاك ، واستعانت بها فى إنجاز نهضتها وبناء حضارتها المسيحية ؛ فإزاء الصحوة الإسلامية التى يتزايد انتشارها وقوتها فى البلدان الإسلامية ، والتى كانت من قبل مستعمرات أوروبية خاضعة للمسيحيين "أبناء الله" ؛ إزاء هذه الصحوة كان من المحتوم على أبناء الحضارة الغربية المسيحية أن يستشعروا الخطر على مصالحهم وقيم حضاراتهم و"شبح الفاتح الإسلامى" أو "التركى الجبار" ، يلوح وراء غبار الصحوة الإسلامية ، التى أعلنت عن نفسها بأقوى تعبير فى الثورة الإيرانية التى جرفت فى طريقها نظام الشاه "التغريبى" - أخلص عملاء أمريكا – وباتت تهدد كل الأنظمة "التغريبية" التى تتحرك وفق توجهات الحضارة الغربية.

ومع تعالى ضجيج "الصحوة الإسلامية" ، كان لابد للحضارة المسيحية أن تفزع وتهب تدافع عن نفسها ، حتى لو كانت الأخطار الفعلية أو الحقيقية مجرد أوهام لا وجود لها على أرض الواقع ، ولكن الخائف تنتابه "الكوابيس" فى النوم ، فيستيقظ مذعوراً متعكر المزاج مُسْتَفَزاً نافر الأعصاب. وهذه هى حال أوروبا – الآن – إزاء ما يحدث فى البلاد الإسلامية ، وما يفسر ظهور الحركات العنصرية العنيفة فى أوروبا ، والتى تصب جام تعصبها الأعمى على المسلمين الموجودين على أرض أوروبا لأسباب كثيرة ليس من بينها بالطبع "غزو" أوروبا ، ولكنها

ذكريات الطفولة الحضارية ، عندما كانت أوروبا تشرع فى بناء حضارتها المسيحية بدافع من الخوف على وجودها من الإسلام الفاتح الذى يغزو البلاد. تلك الذكريات التى تهيجها وسائل الإعلام الجبارة ذات التأثير الجهنمى فى غسل الأدمغة وتوجيه السلوك ، والتى تخضع فى حملتها الدعائية لأصحاب المصالح فى إشعال الصراع ، واستمرار الصدام من أجل المزيد من نهب ثروات الشرق الإسلامى. وأعتقد أن هذا التحليل هو القادر على أن يمدنا بالتفسير الصحيح للسياسة الغربية تجاه البلاد العربية الإسلامية ؛ المستعمرات السابقة لدول أوروبا الغربية.

(و) أسطورة الديموقراطية الغربية

عندما غامر الرئيس السودانى السابق "جعفر نميرى" بإعلان تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية فى بلده المستقل ، المتمتع بالسيادة السياسية الكاملة ، فإن أول وأقوى المعترضين على هذا كان "بابا" الفاتيكان متحدثاً باسم أوروبا الغربية ، وأمريكا التى أعلن نائب رئيسها – حينذاك – "بوش" الأب إن الولايات المتحدة الأمريكية لن تسمح بتطبيق أحكام الشريعة الإسلامية على المسيحيين فى السودان".

إن هذا الموقف يعد تدخلاً فى الشئون الداخلية لبلد مستقل ذى سيادة ، إذ يعد انتهاكاً لسيادته ، ولكن متى سيرضى الغرب المتقدم بتطبيق أحكام القانون الدولى الخاص بالمتحضرين على البرابرة المسلمين ؟!

كما أن هذا الموقف يعد قتلاً للديمقراطية ؛ لأن من المفترض طبقاً لأحكام الديمقراطية أن نترك الشعب السودانى ؛ مصدر السلطة فى السودان أن يعبر عن رضاه ويقبل النظام والقانون الذى يريده.

فإذا علمنا على وجه "اليقين" أن "جعفر نميرى" لم يكن ليغامر بهذه الخطوة الجريئة ، لولا يقينه من أنها ستعطى نظامه التأييد القوى الجارف ، الذى يضمن به الاستقرار ، وبالتالى فإن تطبيق أحكام الشريعة كان تعبيراً عن إرادة شعبية حقيقية حتى وإن قام بالخطوة ديكتاتور فاسد.

وما كانت الحضارة الغربية لترضى بهذا "التحول" الإسلامى المتمرد على قيمها المسيحية ومصالحها الاستعمارية ، فكان حتماً مقضياً فى ديانة أوروبا الاستعمارية أن يزاح "جعفر نميرى" من فوق كرسى الحكم ، فأزيح ، وستعلن أسباب كثيرة لهذا ؛ سيقال مثلاً: إنه ديكتاتور ، وأنه فاسد وأنه طاغية بل هو

سكير يشرب الخمر ، بل هو كذاب أَشِرُ ، ولكن لن يقال أبداً "للمتخلفين" السبب الحقيقى الوحيد.

ولكن تطبيق الشريعة الإسلامية مطلب شعبى حقيقى ، بل هو نتيجة طبيعية لكون أغلبية الشعب السودانى يدين بالإسلام ؛ فمن بدائه الأمور أن يعبر القانون عن ثقافة الشعب الذى يحكمه ، بل الشاذ البالغ الغرابة أن يتم استيراد القانون ، ولذلك لم يستطع النظام السياسى الذى جاء بعد "نميرى" أن يعلن إلغاء تطبيق الشريعة الإسلامية ؛ فلم ولن يوجد النظام السياسى الذى يستطيع أن يجابه الشعب المسلم بإلغاء الإسلام وإعلان الكفر ، ولذلك كان لابد من شغل هذا النظام بفتنة الانفصال ، حتى لا يتفرغ إلى تطبيق الشريعة ، ولا تحقيق نهضة ولا تسرى عدوى الإسلام – إن نجح فى إنجاز التقدم – فى ظلمات أفريقيا السوداء ؛ القارة التى يعول عليها "بابا الفاتيكان" فى نشر المسيحية وقيم الحضارة الغربية ، حفاظاً على المصالح الأمريكية والأوروبية. أليس هو "البابا" الأفريقى كما سمى نفسه تعبيراً عن طموحه فى تنصير أفريقيا؟!

وجاء "قرنق أوجارانج" وظهر جيش تحرير السودان ، وأُحرقت البلاد فى نار الحرب الأهلية والفتنة الطائفية ، وأُدرجت السودان فى قائمة الدول الراعية للإرهاب. . كل ذلك تحت شعار الحرية ؛ حرية العقيدة والديمقراطية وحماية الأقليات ومقاومة الإرهاب ، ولا مانع من تسهيل دخول الإرهابيين إلى السودان ، واكتشافهم هناك لتأكيد الاتهام ، ولا مانع من تدبير بعض العمليات الإرهابية لتكون ضمن حيثيات الحكم بالقضاء على النظام الراعى للإرهاب ، وتبرير فصل الجنوب وتمزيق السودان الذى تجرأ على الاستجابة للتيار الشعبى المناهض للتغريب ولتذهب الديمقراطية إلى الجحيم !!

هل تسمح الديمقراطية للأقلية أن تفرض حكمها على الأغلبية ؟! بالطبع لا ؛ لأن الديمقراطية تعنى فى النهاية فرض حكم الأغلبية على الأقلية التى يجب أن ترضى أو حتى ترضخ لحكم الأغلبية. **هذا هو القانون وإلا فإن البديل هو الفوضى !!**

والسؤال هل يمكن للجاليات الإسلامية الموجودة فى البلدان الغربية أن تستثنى نفسها من الخضوع لأحكام القانون غير الإسلامي الحاكم فى البلدان الأوروبية والذى رضيته الأغلبية غير المسلمة ؟

والإجابة بالقطع "لا" . إن الديمقراطية تمنع ذلك.

فلماذا تفرض الأقلية السودانية المسيحية والوثنية حكمها على الأغلبية المسلمة ، وإلا فليتمزق السودان وليكتو بنار المجاعات والأوبئة ، حتى تسارع الحضارة الإنسانية المعاصرة بإرسال المعونات ، ومواصلة جهود الإغاثة من فرط طيبة قلبها الإنسانى المسيحى الرحيم الذى يشمئز ويفزع من الإرهاب الإسلامى !!

هل يمكن أن يوجد نفاق أوقح أو لؤم أخبث من هذا ؟!

يقول "صمويل هنتنجتون": "إن العديد من الدول العربية بالإضافة إلى كل الدول المصدرة للنفط بدأت تصل إلى مستويات من التنمية الاقتصادية والاجتماعية لم تعد تتلاءم معها النظم المطلقة ، وستصبح الحاجة إلى الديمقراطية أقوى ، بل لقد حدث فعلاً بعض الانفتاح فى النظام العربى السياسى ، ولكن المستفيد الأول من هذا الانفتاح هو الحركة الإسلامية فى العالم العربى. باختصار إن الديمقراطية الغربية تدعم وتُمكِّن القوى المعادية للغرب".

هذا هو النص ، أما التفسير فهو أن ترك "اللعبة" الديمقراطية تجرى على أصولها ، فى البلاد العربية والبلاد الإسلامية المصدرة للنفط ، فإن نتيجة المباراة الطبيعية ستكون فوز الحركات الإسلامية بالحكم ، وبالتالى سيصل إلى صنع القرار من يملكون توجهاً إسلامياً ، ومن يتخذون من القيم الإسلامية مثلاً أعلى ومعياراً للسلوك ، ومن ثم فسوف يجلس على مقاعد الحكم فى البلاد العربية والإسلامية من يمثلون خطراً على المصالح والقيم الغربية.

إذن فعلى الغرب الديمقراطى – واللبيب بالإشارة يفهم – أن يعمل على منع التطور الديمقراطى من النمو والاكتمال فى تلك البلاد العربية والإسلامية حتى لا تصل إلى الحكم قوة إسلامية معادية للغرب ، وبالتالى فإن الغرب هو الذى يحمى نظم الحكم الديكتاتورية فى البلاد العربية والإسلامية ، حتى لو تظاهر علناً بمعاداتها ، أو تظاهرت هى بمعاداة الغرب وانتهاج سياسة مضادة له ، فهذا هو ميثاق "النفاق" المتبادل ، أو هو قانون اللعبة التى تمنع القوى الإسلامية من الوصول الديمقراطى إلى الحكم.

إذن الوظيفة الجوهرية والخدمة الحقيقية التى تقدمها تلك النظم للغرب هى منع الشعوب العربية والإسلامية من الإفصاح السياسى عن هويتها الحضارية أو شخصيتها الثقافية ، ومعنى هذا بكل وضوح منع قيام نهضة حقيقية أى الحيلولة دون بعث عربى إسلامى ينجز التقدم المطلوب ، والنتيجة النهائية هى إبقاء الشعوب العربية والإسلامية فى حفرة التخلف ، ولا مانع من إغراقها فى أوحال الفتن الطائفية ، أو إحراقها فى نيران الحروب الأهلية.

وقدمت لنا الجزائر التجربة العملية أو المثال التطبيقى لشرح هذه النظرية.

فلقد أجريت انتخابات حرة شهدت جميع الأطراف بنزاهتها ، وشاهد العالم أجمع بطاقات التصويت وهى تلقى فى الصناديق الزجاجية الفارغة برهاناً على احترام رأى الشعب وعدم التزوير ، وجاءت النتيجة تعلن فوز الجبهة الإسلامية للإنقاذ بأغلبية كاسحة تمكن هذه الحركة الإسلامية من توجيه المجتمع الجزائرى نحو "الإسلام" ؛ دين الأغلبية والهوية الحضارية للجزائر.

وما كان الغرب ليسكت على هذا "التغيير الخطير" فى المجتمع الجزائرى الواقع على الشاطئ الجنوبى للبحر الأبيض المتوسط ، الذى يقع على شماله دول غرب أوروبا ، وتدخلت فرنسا المُستعمِرة السابقة للجزائر ، والتى ظلت تدعى عشرات السنين أن الجزائر جزء لا يتجزأ من فرنسا ، والتى قامت بأبشع عملية

"تغريب" فى العصر الحديث إذ غيّرت لغة بلاد شمال أفريقيا من العربية إلى الفرنسية – التى أصبحت اللغة الأساسية لهذه الشعوب العربية المسلمة (.....).

وجاء "العسكر" الجزائريون بوحى من فرنسا "الأم" الحنون ، فاستولوا على الحُكم ، وأُلغيت الانتخابات ، وزُجَّ بالزعماء الإسلاميين الذين حصلوا علي أعلى نسبة من أصوات شعب الجزائر ... زج بهم فى غياهب السجون ، وجن جنون التيار الإسلامى الذى كان قاب قوسين أو أدنى من كرسى الحكم ، وبدأت المظاهرات الغاضبة ، وجاءت الاعتقالات وأحكام الطوارئ العاصفة ، واندلعت الحرب الأهلية بحثاً عن الهوية المفقودة أو المسروقة ، وتواترت أنباء المذابح واختلط الحابل بالنابل ، وفى جميع وسائل الإعلام علا الضجيج عن الإرهاب الإسلامى والمتطرفين المسلمين الذين يهددون الحضارة الإنسانية بالويل والثبور وعظائم الأمور !!

(ز) التغريب هو الاستعمار مرتدياً قناعاً محلياً

ما تقدم يوضح لنا أن "التغريب" بمعنى طمس الهوية الحضارية الإسلامية هو البديل عن الاستعمار المباشر ؛ الذى كانت تمارسه الدول الغربية فى البلاد العربية والإسلامية ، فبدلاً من القواعد العسكرية المكلفة ، واستفزاز الشعور الوطنى عند أبناء المستعمرات ، وما ينتج عن هذا من مظاهرات واضطرابات وعمليات فدائية ، واغتيالات فى صفوف الأجانب المستعمرين ، بدلاً من كل هذا يقوم حكام من أبناء المستعمرات قد تم غسل أدمغتهم من ثقافتهم القومية ، ومن ثم فقدوا هويتهم الحضارية أى انتماءهم الحقيقى لأوطانهم ، يقوم هؤلاء بتنفيذ كل مخططات الغرب الاستعمارية ، وتحقيق كل ما يريد بأقل التكاليف ، وإن حدثت مواجهات عنيفة بين الشعب وحكامه ، فالخسارة فى جميع الأحوال بعيدة عن أهل الغرب ؛ فهى خسائر محلية !! إن التغريب هو مواصلة الاستعمار الغربى بوسيلة أخرى أرخص ثمناً وأشد أثراً ، وأنجح فى تحقيق أهداف الاستعمار الغربى ، التى يمكن توحيدها فى هدف واحد جامع شامل هو إبقاء التخلف فى شعوب المستعمرات ، ليبقى الغرب المتقدم متمتعاً بالرفاهية والكبرياء أى الشعور بالتفوق.

وبالطبع فإن هدف "التغريب" – هو دون أدنى شك – إبقاء التبعية التى تُبقِى التخلف ، إذ يستحيل عقلاً تصور أن "فرنسا" – على سبيل المثال – وهى تبذل جهدها فى محو الهوية العربية الإسلامية لشعب الجزائر ، أو لشعوب شمال

أفريقيا كانت تهدف إلى تقدم شعوب المستعمرات والأخذ بيدهم على طريق التطور والتنمية لينافسوها أو يسبقوها فى ميادين التقدم.

إذن التغريب يعد بمثابة حرب يشنها الغرب المتقدم لتعويق تقدم المستعمرات السابقة ، وهو يستعين فى هذه الحرب بجيش من الذين "أُشربوا" فى قلوبهم قيم الغرب.

وهم طائفتان: الأولى: الحكام – العسكريون فى أغلب الأحوال – الذين يتولون السلطة بدلاً من الحكام الأجانب ، ويقومون بتنفيذ نفس السياسات التى كانت تقوم بها السلطة الاستعمارية.

الثانية: طائفة المثقفين الذين يقومون بعملية غسيل الدماغ للشعب ، وتبرير إجراءات وسياسات الحكام ؛ إنهم الجناح الفكرى الذى يقوم بتغريب المجتمع عبر أجهزة الإعلام والثقافة والتعليم التى يوضعون فى مراكز قيادتها.

ويتم دعم الطائفة الأولى (الحكام) بإسباغ الحماية عليهم ، وتمكينهم من نهب ثروات البلاد التى يحكمونها ، وتهريبها إلى بنوك الدول الغربية لاستثمارها فى تقوية الاقتصاد الغربى لتزداد الفجوة بين الدول الغنية المتقدمة والدول الفقيرة المتخلفة !!

ويتم دعم الطائفة الثانية (المثقفين) بالبعثات والمحاضرات فى الدول المتقدمة ، والجوائز والأوسمة والتلميع فى وسائل الإعلام ليكونوا نموذجاً يقتدى به الشباب الحائر المشوه الهوية فى البلدان المتخلفة ، فيعجزون عن انتشال أوطانهم من أوحال التخلف ، وتبقى بلادنا العربية والإسلامية سوقاً رائجة مفتوحة أمام أحدث ما أنتجه الغرب المتقدم وميداناً لتجربة أحدث ما أنتجته التكنولوجيا الغربية من أسلحة القتل الفتاكة ، ونبقى جميعاً – نحن أبناء الحضارة الإسلامية – عبيداً نخدم السادة أبناء الحضارة الغربية المسيحية ، أبناء الله !!

ولا يُخفى الدكتور "صمويل هنتنجتون" هذه الحقائق المريرة المفزعة ، بل هو بصراحته وصدقه مع قومه الذين يخاطبهم بمحاضرته يعدد الواجبات التى لابد للغرب أن يقوم بها ليحافظ على تقدمه ، وعلى استمرار السلام داخل حضارته ، وعلى تفوقه على الآخرين.

يقول: "من الواضح أنه من مصلحة الغرب تطوير تعاون أكبر ، وخلق وحدة داخل حضارته ، وبالذات بين الأوروبيين وشمال أمريكا ، ومنع تحول الصراعات المحلية داخل هذه الحضارة إلى حرب كبرى ، والعمل على جذب مجتمعات شرق أوروبا وأمريكا اللاتينية – ذات الثقافة القريبة من ثقافة الغرب – إلى دائرة الغرب ، وتطوير تعاون مع روسيا واليابان ، والحد من القوة العسكرية للدول الكونفوشسية (الصينية) والإسلامية.

- "تخفيف معدل خفض السلاح والقدرة العسكرية للغرب ، وحماية التفوق العسكرى فى شرق وغرب آسيا".

- "استغلال الخلافات بين الدول الكونفوشسية والإسلامية".

- "دعم الجماعات الموالية للمصالح والقيم الغربية داخل الحضارات الأخرى".

- "وتقوية المؤسسات الدولية التى تعكس وتعطى الشرعية للمصالح الغربية والعمل على انضواء الدول غير الغربية تحت جناح هذه المؤسسات".

- "بالنسبة للمستقبل المنظور لن تكون هناك حضارة عالمية ، ولكن عالم من الحضارات المتعددة".

وأعتقد أن أدنى تأمل فى الواقع السياسى المعاصر يبرهن لكل من فى عينيه نظر ، وفى مخه عقل أن نصائح البروفسور أستاذ العلوم السياسية فى جامعة هارفارد يؤخذ بها ويتم تنفيذها حرفياً[5].

وإذا كان الرجل ينصح بالمحافظة على التفوق العسكرى للغرب ، وفى نفس الوقت يطلب الحد من القوة العسكرية للدول الصينية والإسلامية ، فمعنى ذلك بكل بساطة ووضوح أننا فى انتظار ضربات عسكرية شديدة من الغرب ضد الدول الإسلامية.

وإذا كان الرجل يتحدث صراحة عن دعم الجماعات الموالية للمصالح والقيم الغربية داخل الحضارات الأخرى ، التى من بينها دون أدنى شك "حضارتنا العربية الإسلامية" ، بل لعلها هى المقصود أساساً ، فإننا لم نتجاوز الحقيقة عندما اعتبرنا تيار "التغريب" الذى يسمى "التنوير" فى بلادنا هو طليعة الجيش الذى ترسله الحضارة الغربية المسيحية المعاصرة لضربنا وحصارنا وراء أسوار التخلف ! !

(م) أسطورة فصل الدين عن الدولة أو العلمانية المزعومة

نود أن نلفت نظر الذين يزعمون أن الدين قد صار تراثاً مدفوناً فى تراب الماضى ؛ لأن "الله قد مات" كما تتعالى صيحات جنونهم . . نود أن نلفت أنظارهم المتعامية إلى أكبر ظاهرة دينية / سياسية فى القرن العشرين ؛ ألا وهى دولة إسرائيل. إنها دولة أنشأتها من العدم دعوة دينية ، أو إن شئت قلت خرافة

---

(٥) وأظن أن ما يجرى الآن من تشكيل تحالف تقوده أمريكا ضد الإرهاب فى العالم والمقصود به بالطبع الحركات الإسلامية العسكرية العنيفة ، وذلك بعد ما جرى من اعتداءات على أمريكا.. أظن أنه تطبيق عملى لإرشادات عالم السياسة الأمريكى الذى كتب هذه الدراسة عام ١٩٩٢ أى قبل أحداث واشنطن ونيويورك بتسع سنوات على الأقل، فتأمل !!

أو أسطورة دينية ؛ فليس المهم عند صناعة التاريخ وإنشاء الدول والحضارات صحة الأفكار الدينية ، أو سلامة المعتقدات من الخطأ ، بل الشيء الهام الوحيد هو إيمان الناس بها ، وحماسهم لها إلى الحد الذى يدفعهم إلى الحركة الجماعية الجارفة التى تغير الواقع أى تصنع التاريخ ، وتنشىء الحضارة ، وتعطى "الهوية".

دعت الحركة الصهيونية أبناء "الدين" اليهودى إلى التجمع من كافة أنحاء الأرض ؛ وذلك للخلاص من الشتات وإعادة مجد الشعب اليهودى ، وانتهى الأمر بها إلى أن أصبح هدف الحركة هو إنشاء وطن قومى لليهود فى أرض فلسطين ، التى أسموها أرض "الموعد" ، أى الأرض التى وعدهم "إلههم" بتملكها ليتم إنشاء "الهيكل" (المعبد) اليهودى ليلتف "شعب الله" المختار حوله.

ونجحت هذه الدعوة "الدينية" فى تحقيق أهدافها الواحد تلو الآخر ، خطوة خطوة طبقاً للمخطط الصهيونى العالمى ، وأصبحت الآن "إسرائيل" هى أقوى دولة فى الشرق الأوسط ، وواحدة من أعظم القوى التى توجه السياسة العالمية.

سيقال إن ذلك لم يكن ليحدث لولا سيطرة اليهود على الاقتصاد العالمى من خلال البنوك الرأسمالية الضخمة التى يملكونها أو يسيطرون عليها ، ومن خلال هيمنتهم على وسائل الإعلام ذات التأثير الجبار على توجيه الرأى العام ، وبالتالى التأثير على الحكام ومراكز صنع القرار السياسى ، بل وابتزاز كبار القادة والزعماء ، ومن خلال زرع "الصهيونيين" فى كافة المواقع الحساسة فى الدول الكبرى خاصة الولايات المتحدة الأمريكية ، ومن خلال وسائل أخرى كثيرة ، ولكن الحقيقة أن كل تلك الوسائل لم تكن لتنجح لولا "إيمان" الشعب اليهودى أو الجاليات اليهودية فى كافة الدول بهذه الدعوة الدينية للتجمع فى أرض الوعد الإلهى ، بل الأحرى أن نقول: إن اليهود الصهاينة ما كانوا يستطيعون الحصول على كل هذه الوسائل القوية الفعالة إلا بسبب إيمانهم وحميتهم الدينية ، التى دفعتهم إلى تنظيم صفوفهم ، وتجميع قواهم لتغيير الواقع وصنع التاريخ. إن قيام إسرائيل مثلٌ مضروب من الله لتعليمنا أن الدين هو صانع التاريخ ومنشئ الحضارات.

قال "بن جوريون" ؛ أول رئيس وزراء لدولة إسرائيل: "لا معنى لإسرائيل دون القدس، ولا معنى للقدس دون الهيكل" ، يقصد لا معنى لقيام دولة إسرائيل إلا بإنشاء الهيكل (المعبد اليهودى).

فكيف يمكن جمع كل هذا الشتات اليهودى من جنسيات مختلفة ، ونظم سياسية متناقضة ، وأحوال اجتماعية متباينة إلا بالدين ؛ الذى له وحده أن يربط الناس برباط وثيق ، ويؤلف بين قلوبهم ، ويخلق التجانس والانتماء المطلوب لإقامة مجتمع متماسك قادر على صنع التاريخ.

لم ولن يوجد المجتمع الإنسانى الذى لا يعرف الدين ؛ أى لا يختار له "إلهاً" يعبده ، لأن الإنسان الفرد والمجتمع لا يعرف نفسه إلا من خلال معرفته

لربه ، أى اختياره لإلهه الذى يعطيه هويته. كان ذلك منذ القبائل البدائية – فيما قبل التاريخ – حتى نهاية القرن العشرين ، حيث رأينا "رونالد ريجان" فى حملته الانتخابية لترشيح نفسه رئيساً للولايات المتحدة الأمريكية ؛ أقوى دولة فى العالم عام 1984 يمسك بالإنجيل ، ويقول لناخبيه الذين يطلب تأييدهم "هذا هو الحل" "الإنجيل هو الحل" . أليس هذا ترجمة مسيحية لشعار التيار الإسلامى فى بلادنا "الإسلام هو الحل" ! !

وعلينا أن نتذكر أنه بعد حرب الأيام الستة 5 يونيو 1967 ، التى أذاقت فيها إسرائيل العرب عار الأبد ، وقفت "جولدا مائير" لتقول : "يقولون إن إسرائيل تحفظ السبت ، ولكننى أقول إن السبت هو الذى يحفظ إسرائيل". إنها ترد على الذين يعيبون على دولة إسرائيل شدة تمسكها بتعاليم الشريعة التى يُعَبّر عنها بحفظ السبت ؛ أى احترام قدسية يوم السبت ، الذى تجعله وصايا التوراة مخصصاً للعبادة وتحرم فيه العمل ، وقد أحدث رجال الدين اليهودى جماً غفيراً من المحظورات التى يَحْرُم ممارستها فى هذا اليوم ، مما يثير انتقاد الكثيرين من التزمت الدينى اليهودى ، الذى يجعل من ممارسة العبادة ، خاصة يوم السبت عبئاً ثقيلاً ، فترد هذه المرأة – التى دوخت الزعماء العرب – بأن المنتقدين ليسوا على حق ، وتوجه أنظارهم إلى الحقيقة التى تخفى على أفهامهم ؛ وهى أن الشريعة هى التى تحفظ الدولة ، وأن احترام أحكام الدين وتعظيم حرمة الشعائر الدينية هو صمام الأمان للدولة ؛ الذى يحفظها من التفكك والضياع ؛ لأن الدين هو الذى يُكوّن الدولة أصلاً إذ يخلق المجتمع.

ونأتى الآن إلى أكذوبة فصل الدين عن الدولة الذى يعتبره "التنويريون" ؛ أهل التغريب نقطة البداية أو نقطة الصفر فى طريق التقدم ؛ فلابد – بزعمهم – أن نبدأ بإبعاد الدين عن توجيه حياتنا ، ونطلق العقل من أغلال النقل ، ونحرر الإبداع من قيود التراث ، ..... إلى آخر هذه الترهات التى يسودون بها الصفحات ، ويسممون بها أفكار الشباب الحائر الضائع ، ويزعمون أن أوروبا قد فعلت هذا ، وأنها لم تحقق التقدم إلا بهذا الفصل المزعوم ، ويرددون – هاهنا – ألفاظ العلمانية والدولة الدينية ، والتحرر من الماضى وسلطة النص ، وغيرها من زخرف القول المضلل.

وأظن أن من يتابع الأزمات السياسية ، والأخبار التى تتواتر عبر وسائل الإعلام سوف يدرك بكل بساطة أن الدين هو القوة المؤثرة - رقم واحد - فى مجريات السياسة العالمية ، وأعتقد أننا قد ضربنا من الأمثلة ما فيه الكفاية وزيادة لمن يطلب الحقيقة. أما خرافة فصل الدين عن الدولة فإنهم يشيرون بها – على سبيل التضليل – إلى الصراع الذى نشأ فى أوروبا بين الملوك والبابا فى روما (الفاتيكان) فى بداية عصر الثورة الصناعية ، نتيجة التدخل الشديد والعنيف من جانب رجال الدين - أى رجال الكنيسة - فى الشئون السياسية ، مما كان يعد انتهاكاً لسلطة الملوك ، وقد انتهى الصراع بحصر سلطة رجال الدين ؛ أى الكهنوت فى مجال العبادة فقط ، أى داخل الكنائس باعتبارهم أصحاب السلطة

الروحية ، أى العلاقة بين الإنسان وربه ، ومن ثم فليس لهم أن يتدخلوا – بموجب سلطتهم الروحية (الدينية) تلك – فى الحياة السياسية التى يجب أن يكون الملك ، أو رئيس الدولة هو المهيمن عليها ، وهذا ما يشار إليه بالعلمانية.[3]

وبالطبع فهناك فارق كبير وجوهرى بين القول بصراع الدولة (أو الملك) مع الكنيسة (أو مع رجال الدين أو حتى مع البابا) وبين القول بصراع الدولة مع الدين ؛ لأن هذا الصراع الأخير المزعوم أمر غير محتمل عقلاً ؛ فى ضوء ما أسلفنا بيانه ، بل هو شىء لا مفهوم له. إنه تعبير غير منطقى ! !

وهناك فرق خطير بين القول بفصل الكنيسة عن الدولة ؛ أى عزل رجال الدين عن التدخل فى الشئون السياسية ؛ بمعنى منعهم من الحُكمِ فيما لا يملكون الحُكمِ عليه ، إذ أنه خارج مجال تخصصهم.. هناك فرق خطير بين هذا ، وبين الزعم بفصل الدين عن الدولة الذى يُفهم منه خروج الدولة ، أى الشعب بسلطاته الثلاث: التشريعية والتنفيذية والقضائية على أحكام الدين وعدم تقيدهم بحدوده.

ولنضرب مثالاً بأعنف صراع حدث بين السلطة السياسية ممثلة فى ملك بريطانيا هنرى الثامن ، والسلطة الدينية ممثلة فى "بابا روما".

كان ذلك فى القرن السابع عشر الميلادى قُبيل عصر الثورة الصناعية ، وفى أوج الصراع بين الدول الأوروبية الاستعمارية التى تتنافس على أرض العالم الجديد (الأمريكتين) المكتشف حديثاً من أجل السيطرة على التجارة العالمية ، حيث كانت تدور حرب القرصنة البحرية بين أساطيل الدول المتنافسة. وكانت اسبانيا – حينذاك – هى أقوى دولة أوروبية ، وكان ملكها "شارل الخامس" هو أقوى رجل فى أوروبا ، ولم يكن فى العالم – حينذاك – من هو أقوى منه إلا السلطان العثمانى ؛ خليفة المسلمين. وكان "شارل الخامس" يتمتع بتأييد "البابا" الذى يبارك أساطيل أسبانيا ، وهى تمخر عباب البحار لتفتح البلاد ، وتنشر الإنجيل وسط البرابرة المتخلفين لتدخلهم فى ملكوت المسيح ، وتستولى على ثروات المستعمرات المفتوحة.

وحينذاك كان الشعب الإنجليزى يريد أن تصبح بريطانيا مثل أسبانيا التى تمتلك أقوى الأساطيل وتظفر بأقوى تأييد من "البابا".

وبدأت الأزمة عندما أراد الملك "هنرى الثامن" ؛ ملك بريطانيا تطليق امرأته "كاترين أوف أريجون" من أجل أن يتزوج "آن بولين". المشكلة أن الطلاق محرم فى المسيحية . . والحل "الشرعى" الوحيد هو الحكم ببطلان الزواج من الأساس ، ومن ثم يجب التفريق بين الزوجين للبطلان وليس الطلاق.

إذن ، المطلوب فتوى من "البابا" ببطلان زواج "هنرى" من "كاترين". ولكن كيف يحكم "البابا" على هذا الزواج بالبطلان ، وهو الذى سبق له الحكم بشرعيته رغم الشُبهةَ ؛ لأن "كاترين" كانت زوجاً "لأرثر" شقيق "هنرى" ، فلما

مات "أرثر" ، وصارت "كاترين" أرملة أراد "هنرى" أن يتزوجها ، ومحظور زواج الأرملة فى المسيحية ، فكان المَخرج "الشرعى" الوحيد هو الحكم بانعدام زواج "كاترين" من "أرثر" ؛ بزعم أنه لم يدخل بها ، وما دام لم يجامعها فإن الزواج لم يقع أى هو منعدم ، وبالتالى فهى ليست أرملة "ارثر" الذى مات ، ويحق "لهنرى" أن يتزوجها ويصبح زواجهما شرعياً. بهذا أفتى "البابا" من قبل ، فكيف يأتى اليوم ليقول أن "كاترين" كانت أرملة "أرثر" وأن زواجها من "هنرى الثامن" كان باطلاً؟!!

مشكلة معقدة والفتوى المطلوبة تسيء إلى سمعة البابا ، الذى سيبدو ألعوبة فى يد الملك هنرى الثامن ، والأسوأ من كل هذا أن تلك الفتوى المطلوبة سوف تغضب الملك "شارل الخامس" ملك أسبانيا ، لأن "كاترين" هى خالته ، ومن ثم فإن الفتوى قد تعنى قتل البابا بيد "شارل الخامس" ، أقوى رجل فى أوروبا كلها.

فماذا يفعل "البابا" المسكين فى هذه الورطة ؟! قرر عدم إغضاب "شارل الخامس" والمحافظة على سمعته وكرامته ، فرفض أن يعطى "هنرى الثامن" الفتوى المطلوبة.

فماذا يفعل "هنرى الثامن"؟! هل يترك سلطته تهتز؟! هل يترك رجال الكنيسة فى وطنه بريطانيا يخضعون لسلطان البابا فى روما ؟ لماذا لا تكون الكنيسة فى بريطانيا مجرد هيئة حكومية ، أو مؤسسة من مؤسسات الدولة تخضع للملك ، وليس للبابا الجالس فى روما بإيطاليا؟!!.

ووجد "هنرى الثامن" أن الحل الوحيد هو إعلان استقلال بريطانيا دينياً عن سلطة بابا روما ، وأن تكون لبريطانيا كنيستها الوطنية الخاصة بها ، والتى تخضع للملك الجالس على عرش بريطانيا ، وليس للبابا الجالس فى "روما".

ونشأت الكنيسة البريطانية المستقلة التى وجد فيها الشعب الانجليزى التعبير عن شخصيته القومية. وبدأت محاربة الكاثوليكية فى بريطانيا التى اتخذت مع كنيستها الجديدة مذهباً دينياً جديداً هو المذهب البروتستانتى ، الذى كان ثمرة حركة الإصلاح الدينى التى بدأت فى أوروبا منذ القرن السادس عشر ، لتقليل سلطة أو تقليم أظفار البابا ، وليس للتمرد على المسيحية أو الخروج على الدين.

إن حركة الإصلاح الدينى كانت تهدف إلى تصحيح المفاهيم الدينية – من وجهة نظرها – وكانت هذه الحركة الدينية هى التمهيد الروحى (الدينى) للثورة الصناعية ، وما كان للثورة الصناعية أن تنجح لولا ذلك الإصلاح الدينى الذى مهد لها.

إن "هنرى الثامن" عندما تمرد على سلطة "البابا" فإنه اختار ديناً جديداً ، أعنى مذهباً دينياً جديداً ، وجد فيه الشعب الانجليزى نفسه وأدرك به هويته ، وهذا هو المغزى العميق لتلك الأزمة.

لقد أصبح الملك "هنرى الثامن" هو رأس الكنيسة الجديدة ، كأنه قد صار الكاهن الأكبر ، أو البابا لكنيسة بريطانيا الوطنية ، محققاً أقوى اندماج بين السلطة الدينية والسلطة السياسية ، أو بين الدين والدولة ، ولا يزال – حتى الآن – من ألقاب الملك فى بريطانيا أنه رئيس الكنيسة وحامى العقيدة. فأين هو هذا الفصل المزعوم بين الدين والدولة!!

وينقل الأستاذ / محمد جلال كشك[6] عن البروفيسور "كريستوفر هيل" فى كتابه "الإنجيل الإنجليزى وثورة القرن السابع عشر" قوله: "لقد ترجم البروتستانت فى القرن السادس عشر الإنجيل للإنجليزية ، وأتاحوه للعامة ، فتحول إلى بيان ثورى استعانوا به فى شن ثورتهم الإصلاحية ؛ إذ زود الناس بالحجج الدينية التى تصبغ الشرعية على مطالبهم البورجوازية ، وتبرر الحرب الأهلية ، وإعدام "شارل الأول" ، فقد رأوا فيها صدق ما جاء فى سفر الرؤيا عن سقوط عدو المسيح ، ليحل محله حكم الصالحين وأنهم هم المنفذون لإرادة الله كما أُنزلت فى كتابه".

"فمن الكتاب المقدس استمد الثوريون والعلمانيون والإنجليز فى منتصف القرن السابع عشر سندهم القوى لدعم مطالبهم الجريئة فى التغيير الدينى والسياسى والاقتصادى ، فأصبحت أسرة ستيوارت هى ملوك بابل وفرعون مصر ، والأساقفة الكاثوليك هم الفريسيون ، وروما والباباوية هى الصيغة الحديثة لمصر وبابل وسدوم مدينة قوم لوط ، وكان المتطهرون البروتستانت يصيحون فى معسكرات المتطوعين ضد الملك "شارل" صيحات التوارة:

"اقطعوا رأس الحية !! اقتلوا العمالقة ومزقوهم إرباً.

شارل هو لعنة الدم الذى بدون قتله.

لن يعود السلام ولن تتطهر الأرض".

ويلخص البروفسور كتابه بقوله **"إن التغيير العظيم فى منتصف القرن السابع عشر كان ثورة إنجيلية"** ، أو كما قال الأستاذ/ محمد جلال كشك كان ثورة بالدين وليس ضد الدين.

ولقد لخصت دائرة المعارف البريطانية دور "هنرى الثامن" فقالت "إن هنرى الثامن أعطى أمته ما كانت تتطلع إليه ؛ أعطاها وطنيتها عندما أعطاها كنيستها ودينها الوطنى". ولا أعتقد أنه يوجد من يستطيع أن يشكك فى عِلمية دائرة المعارف البريطانية !! هذا هو أعنف صراع وقع فى أوروبا بين الدولة والكنيسة ، فهل يشتم فيه رائحة الخروج على الدين أو فصل الدين عن الدولة !!

---

(٦) كتاب "قراءة فى فكر التبعية" ص ٢٧٧

(ط) لماذا يبدو لنا الغرب إباحياً لا دينياً ؟!

يتبقى لنا الإجابة عن سؤالين هامين:

الأول: لماذا تبدو "مظاهر الخروج على الدين" واضحة جلية فى كثير من الأحيان خاصة مع ازدهار الحضارة وارتفاع مستوى الرفاهية ، كما نرى الآن فى أوروبا وأمريكا حيث تنتشر الخطايا الدينية ، إذ يرتكب أغلب الناس كل المعاصى التى ينهى الدين عنها. وتنتشر المذاهب الفنية والفلسفات التى تحارب الدين ، الذى يبدو فى هذه الحال وكأنه لا وجود له فى واقع الحياة كما يمارسها الناس ؟!

والإجابة هى أن نتذكر أن الحضارة كائن حى، أو كما قلنا هى شجرة كبيرة كثيرة الأغصان ، ولكنها تنبت من بذرة واحدة صغيرة هى الدين ، ولما كان كل كائن حى لابد أن تصيبه الأمراض ، بل حتماً عليه أن يموت فى النهاية بعد أن يمر بمرحلة الشيخوخة ، أو قد يلقى مصرعه بغتة بسبب كارثة ، لذلك تظهر علامات الخروج على الدين فى مؤسسات المجتمع المتحضر بالضبط كما تظهر الأمراض فى جسم الإنسان ، أو فى كلمات أخرى يجب النظر إلى مظاهر الخروج على الدين أو التمرد على الله باعتبارها أمراضاً تصيب جسم الحضارة ، ولكنها لا تنفى أن الجسم ما زال حياً ينبض قلبه ؛ أى أن الدين ما يزال يعمل فى داخل الإنسان ، وعلينا أن نلتفت دائماً إلى أن الإنسان بموجب طبيعته يظل ميداناً لمعركة بين الخير والشر ؛ فهو ليس ملكاً أو إلهاً لا يخطئ بل هو معرض للفساد ، مكتوب عليه الموت فى النهاية.

لكن الجدير بالملاحظة – هنا – أن "الآخرين" ، أى أبناء الحضارات الأخرى غالباً ما يلتفتون – فقط – إلى سلبيات الحضارة التى لا ينتمون إليها ، بدافع من اختلاف الهوية ، والشعور بالتميز أو الغيرة والتنافس ، ولهذا وصف "غاندى" الذين لا يرون من الهند إلا مظاهر التخلف ، ويعجزون عن رؤية مظاهر عظمتها بأنهم مثل جامعى القمامة لا يرون من المدن إلا المخلفات.

وكذلك الإنسان العربى المسلم القادم من مجتمع محافظ ملتزم دينياً ،قد لا يجذب انتباهه غالباً – لأول وهلة – إلا مظاهر الانحراف الأخلاقى أو الإباحية التى تسود المجتمعات الغربية فى الوقت الراهن ؛ فلا يلتفت إلى الحقائق الأخرى الأعمق التى لا تبدو لعين السائح الغريب المتعجل ، ولذلك فإن الشاب العربى المسلم قد يرى الفتاة الأوروبية المتحررة التى تمسك بالسيجارة فى يدها ، ولكنه

يغفل – غالباً – عن الأخرى التى تقضى يومها كله فى المكتبة ، أو فى معمل للأبحاث العلمية.

والخطيئة هنا أو التضليل أن نتوهم أو نبشر بأن الخروج على الدين والإباحية والتحرر من قيود الأخلاق والتراث هو الذى صنع الحضارة الغربية المعاصرة ؛ فهذا دجل يقصد به محاربة الإسلام ؛ بذرة حضارتنا ، ومن ثم فالهدف من هذا التضليل هو إبقاؤنا فى سجن التخلف!!

وبالطبع فكلما تقدم الإنسان فى العمر ، ودخل فى الشيخوخة كلما زادت أمراضه وتكاثرت عليه مظاهر الضعف ، وكذلك الحضارة كلما تقدمت وازدهرت تكاثرت وتزايدت مظاهر التمرد على الدين. فمن الجهل البيّن أو الخيانة العلمية أن يدعونا تيار التغريب إلى أن نبدأ نهضتنا أو بعثنا الحضارى بمظاهر "شيخوخة" الحضارة الغربية المسيحية!!

ولاشك أن العليمين ببواطن الأمور – فى الحضارة الغربية – يعرفون جيداً أنها تعانى من أمراض الشيخوخة ، التى قد تؤدى إلى موتها أى اندثار الحضارة ، ولابد من تجديد قوتها ، وما من سبيل إلى هذا إلا بخلق أعداء جدد يمثلون تحدياً لها ؛ فيخلقون لديها الاستجابة الحضارية التى تردها إلى صباها وشبابها أى إلى أصلها المسيحى ؛ بذرة تكوينها فتتجدد قوتها وتستعيد تماسكها.

أليس هذا هو التفسير الصحيح لما يحدث الآن من الاتفاق على اتخاذ "الإسلام" عدواً تاريخياً ، والحديث عن صدام الحضارات ، وهو ما يفسر ارتفاع صوت التعصب الدينى فى الغرب الذى كان يتوهم أهل التغريب عندنا أنه "علمانى لا دينى".

والسؤال الثانى: فلماذا تأخر المسلمون – إذن – وتخلفوا مع أنهم لم يفقدوا دينهم بل ظلوا طوال العصور مسلمين ؟!!

إذا فهمنا المثل الذى ضربناه بتشبيه الحضارة بالشجرة عرفنا الإجابة.

إن البذرة (الدين) لا تُخرج الشجرة (الحضارة) من تلقاء نفسها ، بل لابد من أن توضع فى التربة الجيدة القادرة على الإنبات ، ولابد أن تروى بالماء وأن تتم رعايتها. وكذلك "الدين" لابد أن يجد الشعب المستعد المتهيئ لاعتناقه ، ولاتخاذه وسيلة لتغيير واقعه ، فهذا الشعب هو التربة الجيدة. ولابد أن يروى الدين بماء "الإيمان" ، لأن إيمان الأمة أو حميتها الدينية هى ماء الحياة لشجرة الحضارة ، ولابد أن تتم رعاية الشجرة ؛ فتزال الحشائش الضارة التى تنمو حولها ، وتعالج الأمراض التى لابد أن تعتريها بموجب طبيعة الإنسان القابلة للفساد، وهو ما يعنى معالجة الأخطاء والضلالات التى تصيب العقيدة والأمراض والاضطرابات التى تصيب السلوك.

وهذه الرعاية لشجرة الحضارة إنما تتم بالمعرفة ، أى بإعمال العقل الذى يُنتِج العلم بمعناه الواسع الشامل لجميع مجالات المعرفة الإنسانية.

قد يحدث أن يفتر إيمان البشر ، لأن الإيمان يزيد وينقص كما علَّمنا رسول الله (ﷺ) ، وقد يتحول الدين إلى مجرد طقوس جامدة ميتة لا حياة فيها ، أى أشكال اجتماعية لا مضمون حقيقى فيها ، عندما تخمد جذوة الصدق وشعلة الإخلاص فى القلوب ، وقد تنمو الخرافات والأوهام وتسود الأهواء عندما يهمل الإنسان "العقل" الذى رفعه الله به فوق سائر المخلوقات... وفى كل هذه الأحوال يتوقف التقدم أو يحدث التخلف.

إذن ، فنحن فى أمسّ الحاجة إلى الإيمان والعلم ، لكى نتمكن من تجديد الحياة فى شجرة حضارتنا التى ذبلت ، ولكننا لن نستطيع أن نظفر بشىء من هذا إلا من خلال نظام سياسى يعبر عن هويتنا ؛ فيسمح لطاقات الأمة بأن تنطلق.

إن العين لا ترى البذرة فى الشجرة التى نمت ولكن العلم يقطع بأن هذه الشجرة السامقة ذات الفروع الكثيرة قد جاءت من تلك البذرة التى لا تُرى بالعين.

إن الإسلام هو بذرة حضارتنا التى تعطينا هويتنا ، وليس لنا أن نعيش فى ظل شجرة أخرى.

الباب الثانى

سؤال الهُوِيَّة : من نحن وما هى رسالتنا ؟!

(أ) انفجار سؤال الهوية

يجد الإنسان نفسه مضطراً إلى تحديد شخصيته أو تعيين هويته عند احتكاكه بالآخرين "الغرباء" عنه ؛ فالإنسان لا يقدم نفسه أو يذكر "اسمه" لأهل بيته (امرأته وأبنائه وأخوته أو أقاربه بصفة عامة) ، وذلك لأن كل هؤلاء "يعرفونه" ، وإنما يقدم نفسه إلى الذين "لا يعرفونه". ولا شك فى أن هذه التجربة الإنسانية أعنى الالتفات إلى "الهوية" ، ومحاولة معرفة النفس وتعريفها تتجلى فى أقوى أو أظهر صورها على المستوى الفردى فى تجربة "الاغتراب" ، عندما تسوق الأقدار الإنسان إلى الذهاب والدخول فى "مجتمع" آخر يختلف ويتميز – على نحو فاصل – عن المجتمع الذى أتى منه الإنسان ، أى "المجتمع" الأصلى الذى يشعر الإنسان فى داخل نفسه أنه ينتمى إليه. ههنا فى تجربة "الاغتراب" التى يعانيها طلاب البعثات العلمية فى "خارج" أوطانهم ، والهاربون من جحيم الاضطهاد السياسى أو الدينى فى أوطانهم ، والباحثون عن مستوى أعلى من المعيشة فى البلاد المتقدمة ، والباحثون عن الثروة ، أو المهجرون من بلادهم بسبب الحروب والكوارث الطبيعية ، أو جنود القوات الدولية التابعون لهيئة الأمم المتحدة الذين يذهبون إلى خارج بلادهم فى مهمات حفظ السلام عند اشتعال الأزمات السياسية.

فى كل هذه المواقف ينتبه الإنسان إلى "هويته" فى مواجهة "الآخر" ؛ الذى يجد نفسه أمامه يسأله بلسان الحال "من أنت ؟! وماذا تريد ؟!" ، فيسأل الإنسان نفسه " من أنا؟! وماذا أريد؟!". هكذا يتبين لنا أن سؤال الهوية ينبعث عند مواجهة الآخر فى علاقة مباشرة ، ويكون مرتبطاً دائماً بالسؤال عن الغاية ، فسؤال: "من أنا؟" يلتصق دائماً بسؤال: "ماذا أريد؟!"

وينفجر سؤال الهوية على مستوى اجتماعى ، أى على المستوى التاريخى عند تصادم مجتمعين ، أعنى فى الحروب والحملات العسكرية لغزو البلاد "الأخرى". ههنا يكون التساؤل "من نحن؟! وماذا نريد؟ أى: ما هى رسالتنا؟!" تساؤلا عن الهوية الحضارية أى الشخصية الثقافية.

ولما كان الدين هو بذرة الحضارة وأساس بناء الشخصية الثقافية للمجتمع – كما بيَّنا من قبل – فإن سؤال الهوية المثار على مستوى المجتمع ، أى المنفجر فى الأحداث التاريخية يكون دائماً مصبوغاً بصبغة دينية ، ومن ثم يتحول الصراع الحربى – فى الوجدان الشعبى – تلقائياً إلى صراع دينى بين المؤمنين ضد الكفار

، أو المسيحى ضد أعداء المسيح ..... أياً كانت أسماء الأديان ؛ لأن الدين – فى هذه الحالة يكون – هو الوطن.

فهل من قبيل المصادفة أو العبث أن رجال الدين أو المؤسسة الدينية تكون دائماً هى طليعة المقاومة ضد المحتل الغاصب ؛ كما رأينا فى مقاومة المصريين ضد الحملة الفرنسية على مصر بقيادة نابليون ؟! وهل من قبيل المصادفة أو العبث أن "نابليون" نفسه قد أشاع أنه قد أسلم ، ووزع بياناً نشره على الشعب المصرى يعلن فيه أنه جاء لنصرة الإسلام (؟!) ورفع الظلم عن المصريين؟!

طبعاً هو مخادع والشعب نفسه يوقن بهذا ، ولكن "نابليون" كان يحاول تخدير "الحمية الدينية" عند الشعب ؛ لأنه يوقن أنها قلب المقاومة الوطنية للغزو الأجنبى. وليست هذه الحقيقة "الإنسانية" مقصورة على المسلمين وحدهم ، فقد أسمت أوروبا حملاتها لغزو الشرق: الحروب المقدسة أو الحروب الصليبية ، فصبغتها – إذن – بطابع القداسة أى الدين الذى يتمثل عندهم فى عقيدة الصليب (الصلب والفداء).

وما كان أمامها من طريق آخر ؛ لأنها لا تستطيع حشد الجهود ، وتجييش الجيوش من كافة البلدان الأوروبية إلا باستثارة وبعث أساس وحدة الثقافة الأوروبية ، وأصل تكوين الحضارة الغربية أعنى "الدين المسيحى" ، تلك الحضارة التى بدأت ولادتها من خلال اتصال الشعوب الأوروبية بالحضارة الإسلامية فى العصور الوسطى ، ذلك الاتصال الذى بلغ ذروته المحتدمة فى الحروب الصليبية التى استمرت زهاء قرنين من الزمان ؛ الحادى عشر والثانى عشر بعد ميلاد المسيح ، حيث كانت الحضارة الإسلامية قد بدأت طريق الأفول والغروب ، بينما الحضارة الغربية المسيحية تشرع فى النهوض.

ومعنى قولنا هذا : أن الحضارة الغربية المسيحية قد تكونت ، أى أدركت الشعوب الأوروبية "هويتها" من خلال صراعها مع "الآخر" الإسلامى ، والذين يعجزون عن إدراك هذه الحقيقة التاريخية الدامغة يعجزون بالطبع عن فهم "سر" التعصب الدينى المسيحى الذى يظهر الآن فى "الغرب" اللادينى العلمانى الإباحى المعاصر ؛ ذلك التعصب الذى يتناقض مع كل تلك الصفات الظاهرة التى تراها عيون أهل الشرق الغرباء ، ويتناقض مع كل الشعارات السياسية التى تعلنها أوروبا الغربية وأمريكا فى المحافل الدولية: الديمقراطية ، حرية العقيدة ، التسامح الدينى .. الخ.

وهو ما يسميه المفكرون والكتاب العرب والمسلمون "ازدواجية المعايير" ويعيبون على أمريكا وأوروبا أنها تكيل بمكيالين ، دون أن يسألوا أنفسهم: لماذا تكيل بمكيالين دون أن تشعر بالذنب أو يساورها الشك فى عدالتها ؟

وبالطبع تعجز "النخبة" عندنا عن فهم "سر" التأييد الجارف الذى يعطيه الغرب بزعامة أمريكا لإسرائيل ؛ ذلك التأييد الذى يتعارض ويتناقض مع كل منطق عقلى ومعيار قانونى ، بل حتى يتعارض ويتناقض مع المصالح الغربية الحقيقية فى الشرق العربى الإسلامى الذى يسمونه "الشرق الأوسط" ؛ لأن تلك المصالح يبدو للعقل العربى الإسلامى أنها تتحقق على نحو أفضل لو قامت على أساس التعاون والتفاهم بين الشرق والغرب ، بدلاً من الصراع والخلاف. فلماذا لا يرى "العقل الغربى" هذه الحقيقة "الإنسانية" الواضحة ؟!

هذا هو السؤال الذى يحير "النخبة" عندنا ؛ سواء أهل الحكم أو أهل الفكر الذين يغفلون عن "هوية" العقل الغربى الذى تكون فى ظل الحضارة الغربية التى نشأت من خلال الصراع المحتدم مع الشرق الإسلامى ، فغاص فى أعماق الوجدان الغربى – عند تكوين الحضارة التى تعطى "الهوية" – أن المسلم هو العدو ، أى الشيطان الذى يحارب المسيح والذى لابد أن يقتله المسيح !!

ألا تفسر هذه "الهوية" الثقافية الفتور البارد الذى يبديه "الإنسان" الغربى تجاه المذابح البشعة التى ترتكب كل يوم ضد "البشر" العرب الذين يعيشون فى فلسطين (أو إسرائيل إن شئت) ؛ تلك المذابح بل المجازر البشرية التى يراها العالم كله على شاشات التليفزيون كل يوم. ألا نتذكر الطفل "محمد الدرة" الذى قتله الجندى الإسرائيلى ، رغم توسلات أبيه ، ورأى الناس جميعاً – على الشاشة – الجندى وهو يصوب البندقية ، والأب الملتاع يصرخ متضرعاً، يحاول أن يحمى فلذة كبده ؟!

إننا هنا لا نتساءل عن الموقف الرسمى للدول الغربية التى ربما تضع فى حسبانها عوامل كثيرة عند إظهار ردود أفعالها ، ولكننا نتساءل عن استجابة الإنسان الغربى . . عن الموقف الشعبى. لماذا لم تقم المظاهرات التى تندد بالإرهاب الإسرائيلى ، وتطالب بقطع العلاقات الدبلوماسية مع قتلة الأطفال ؛ خاصة وأن اليهود – من الناحية الدينية البحتة – هم أعداء المسيح ، الذين زعموا أنهم صلبوه ويعتقد المسيحيون ذلك ، بينما "القرآن" ؛ كتاب المسلمين المقدس يمجد "المسيح" ، ويصفه بأنه كلمة من الله ، وروح منه ، بل ويعطى اسم أمه "مريم" عنواناً لسورة من سوره ، بل يعطى اسم جده لأمه "عمران" عنواناً لواحدة من أكبر سور القرآن ، السورة الثالثة "آل عمران" !!!

ما هو "سر" هذا التناقض فى الموقف الغربى "اللاإنسانى"؟! "السر" يكمن فى "الهوية" الحضارية التى أعطت الإنسان الغربى ثقافته ، أى عرف بها نفسه باعتباره "مسيحياً" عدواً للمسلم الفاتح الذى يغزو بلاده ، ويريد القضاء عليه؟ هذه هى "صورة" المسلم فى أعماق الوجدان الغربى.

إن جسم الإنسان يتكون وينمو فى البيئة الطبيعية المادية التى ينشأ فيها الإنسان ، فعناصر الهواء والتربة تدخل فى تشكيل جسمه ، وبالطبع لا يمكن

للإنسان الفرد أن يتدخل – إلا إلى مدى محدود جداً – فى البيئة الطبيعية التى تتحكم فى بناء جسمه.

وبالمثل فهناك بيئة أخرى غير مادية تقوم ببناء وتشكيل شخصيته أو باطنه (القلب بالتعبير القرآنى) ؛ هذه البيئة تتكون من المعتقدات والعادات والطقوس الدينية والاجتماعية والأساطير والملاحم الشعبية وأغانى المناسبات الاجتماعية (الزفاف ، الموت ......). هذه البيئة غير المادية هى الثقافة ، التى تنفذ إلى باطن الإنسان (قلبه) كما ينفذ الهواء من الأنف والفم إلى صدر الإنسان عبر التنفس الذى يتم تلقائياً ودون وعى أو إرادة من الإنسان. فكذلك الثقافة يتنفسها باطن (= قلب) الإنسان لتبنى وتشكل عقله ووجدانه وسلوكه ، وتمنحه بذلك شخصيته أو هويته وتنتقل الثقافة من جيل إلى جيل عبر المؤسسات الاجتماعية.

إن الثقافة الأوروبية قد تشكلت فى خضم الصراع المحتدم مع الشرق الإسلامى ؛ العدو التاريخى الذى أدركت أوروبا "هويتها" من خلال تهديده لها ، ذلك التهديد الذى استجابت له بإنشاء حضارتها ، وواصلت تقدمها بينما كانت دورة الحضارة الإسلامية تسير على منحنى الغروب.

وبتذكر هذه الحقيقة التاريخية يمكننا إدراك "سر" العداء المتأصل فى قلب الغرب ضد الإسلام والمسلمين ؛ ذلك العداء الذى لا تستطيع أن تمحوه بسهولة المعرفة المكتسبة والمصالح الاقتصادية ، بل على العكس ربما تغذيه المطامع فى ثروات الشرق ، خاصة وقد ورثت الحضارة الأوروبية عن أصلها الرومانى الكبرياء الذى ترجمته دينياً فى عقيدة المسيح ابن الله ، فصار الأوروبيون – في وهمهم- أبناء الله إزاء الآخرين أبناء التراب أو أبناء الجحيم!!.

لذلك لم يبك الغرب لمقتل "محمد الدرة" لأن "محمداً" هذا من أتباع عدو المسيح. هذا هو الموقف الكامن فى أعماق الباطن الغربى المسيحى ، حتى لو كان الإنسان الغربى المعاصر من الملاحدة ، أو الذين لا يبالون بالدين ولا يحضرون قداس الأحد. بل قد وصل الأمر بصحيفة غربية أن أعلنت عن اعتقادها بأن هؤلاء العرب المسلمين فى فلسطين يُعَرِّضُون أبناءهم لطلقات الرصاص ، ويتخذونهم دروعاً بشرية من أجل حماية أنفسهم ، واستجداءً لعطف الآخرين !! ويا له من اعتقاد بالغ الشذوذ موغل فى الخطأ ، ولكنه مقبول أو يمكن أن يبدو مقبولاً لعقول نبتت فى ثقافة معادية للإسلام بحكم التاريخ منذ النشأة والتكوين.

إن الإنسان الفرد لا يختار ولا يتحكم فى هويته الحضارية ، لأنها تتحدد أساساً بميلاده فى مجتمع له زمان ومكان محددان لا دخل لإرادة الإنسان فيهما.

ولكن الأسوأ من هؤلاء الغربيين "الأصليين" – الذين تتحكم فى ردود أفعالهم ثقافتهم أو هويتهم الحضارية الموروثة – الأسوأ منهم أولئك الغربيون بالوكالة أى المستغربون وأعنى بهم وكلاء أو مندوبى الغرب من المسلمين العرب ، خاصة أولئك الذين يسمون أنفسهم بالحداثيين ، فقد قال كبيرهم ؛ الشاعر العربى

السورى المتنكر وراء اسم إله يونانى ، تعليقاً على مأساة اغتيال الطفل "محمد الدرة" ما معناه: "إننا يجب دائماً أن نفرق بين القتل كجريمة وبين القاتل ، فندين القتل لكن لا يجب أن نحكم على القاتل"!!. وبالطبع هذه هى أول وآخر مرة فى تاريخ الإنسانية يتم التفريق بين الجريمة والمجرم ؛ فنحكم على الجريمة ولا نحاكم المجرم !!!

إنه محض جنون ولكن الشاعر ؛ زعيم الحداثيين يعانى بالفعل من فصام (شيزوفرينا Schizophrenia) ثقافى ، فهو بحكم مولده يعد – أصلاً – من أبناء الحضارة العربية الإسلامية ، ولكنه بموجب إحساس عميق بالدونية أو العار ، وتطلع شديد للانتماء إلى الغرب المتقدم ، والحصول – بأى ثمن – على رضاه ؛ الذى قد يبلغ حد منحه جائزة نوبل مثلاً ،يعتبر نفسه من أبناء الحضارة الغربية ، وبذلك يكون قد فصل نفسه عن الواقع ، وخرج مثل المجانين من الزمان والمكان.

ولا عتاب على المجانين بالطبع !!!

(ب) حرب التغريب

لا شك فى أنه عند احتدام الصراع بين أوروبا والبلاد العربية فى الحروب الصليبية ، قد عبرت أمتنا عن هويتها بوضوح شديد ، فقد اعتبرت أن هذه الحروب تدور بين المسلمين (نحن) والكفار (الفرنجة) ، وتنادت للجهاد ، فلما بدأت الغلبة تميل إلى جانب المسلمين ، تذكرت الأمة – على لسان شعرائها – ذكريات الفتوحات الإسلامية الكبرى أيام أمير المؤمنين "عمر بن الخطاب" ، وعندما حقق "صلاح الدين الأيوبى" أكبر فتوحاته حين حطم ظهر الصليبيين فى حطين ، ثم دخل القدس فى يوم ذكرى الإسراء والمعراج ، دعاه الشعراء – لسان وجدان الأمة – إلى استئناف الفتوحات حتى يملك الأرض كلها ، لكن تلك الدعوة لم تكن أكثر من حلم ؛ لأن شجرة حضارتنا كانت قد بدأت فى الذبول.

لقد استمرت الحروب الصليبية زهاء قرنين كاملين ؛ لأن الكفتين كانتا لا تزالان متساويتين ، ولكن بعد ستة قرون ، ومع مجىء العصر الحديث – الذى ولد عندنا مع الحملة الفرنسية على مصر – كان الغرب قد أنجز نهضته ، وأسرعت خطاه على طريق التقدم ، وكنا قد دخلنا فى ليل التخلف ، واستولى علينا السبات ، فاستيقظنا على طلقات المدافع الحديثة والقنابل ، وخيول نابليون تدخل الجامع الأزهر وتدنس حرمته.

لقد اتسعت الفجوة بيننا وبينهم – ورغم ذلك – فبفضل احتفاظ الأمة بهويتها وقيم حضارتها الأصيلة ، وعلى رأسها أو ذروة سنامها القتال فى سبيل الله استطاعت مصر – على تخلفها – أن تهزم أقوى رجل فى أوروبا حينذاك "نابليون".

وأدرك الغرب – الذى يرانا عرباً مسلمين أو مسلمين عرباً – أن احتفاظنا بهويتنا هو الصخرة التى ستتحطم عليها ضربات أطماعه ، وحلمه بالسيادة على كل العالم ، ولذلك بدأ فى حربنا على مستويين :

الأول - مادى ظاهر : هو الحملات العسكرية لتأديبنا وسحق إرادتنا.

والثانى- معنوى باطن: وهو حملات التغريب التى تهدف إلى التشكيك فى قيم حضارتنا ومعالم ثقافتنا ؛ بغية "محو" أو طمس "هويتنا" لكى يتمكن من الاستيلاء علينا ، والاستحواذ على مواردنا بإرادتنا المسلوبة ؛ لأننا نصير كالأعمى الذى يجب أن يؤخذ بيده ، ويقاد على الطريق الذى يختاره له قائده ، أو مثل فاقد الذاكرة الذى يجب أن يعاد تعليمه ، وتوجيهه إلى الوجهة التى يريدها معلمه.

وكانت أهم معالم التغريب:

١- إلغاء أحكام الشريعة الإسلامية باعتبارها القانون الذى يحتكم إليه الناس بموجب أنهم مسلمون ، واستبدل بها قوانين غربية أوروبية ، ومكمن الخطورة هنا هو خلق ازدواجية المعايير فى عقل ووجدان وسلوك المواطن ؛ فيصبح قانونياً مسموحاً بممارسته أمر تحرمه الشريعة ، ويصير – فى المقابل – أمر حلال تسمح به الشريعة محظوراً تمنعه القوانين. والنتيجة النهائية لهذه الازدواجية هى تشويه الهوية ، وهو أمر مستمر حتى بعد زوال الاستعمار الظاهر والحصول على الاستقلال الزائف بخروج قوات الاحتلال من البلاد.

٢- تشويه قيم الإسلام فيشاع – فى وسائل الإعلام والجامعات ومؤسسات البحث – أنه دين "بدو" الصحراء ، الذين ليس لهم أى مشاركة فى الحضارة الإنسانية ، وهو دين عدوانى يدعو إلى الغزو والنهب ، وشريعته قاسية تقطع الأيدى وترجم الزناة . . إلى آخر هذه الأكاذيب والترهات التى تهدف فى النهاية إلى اعتبار أن الإسلام هو دين المتخلفين أو هو دين التخلف ، وإذا أردنا التحضر والتقدم فعلينا ترك الإسلام !!! وما زالت الدراسات على هذا المنوال تجرى – هناك – على قدم وساق ، ليقوم بنشرها – هنا – فى بلادنا وكلاؤهم.

٣- تشويه التاريخ الإسلامى فيذاع أن ليس فيه إلا الغزو والنهب وبيع العبيد وسفك الدماء والمجون والإباحية واللواط والظلم واضطهاد الأقليات.... الخ.

٤- احتقار اللغة العربية واتهامها بالجمود والتخلف وعدم القدرة على تلبية احتياجات العصر ، أو التعبير عن العلوم الحديثة ، واتهامها من ناحية أخرى بالصعوبة والتقعر ، ومن ثم فالواجب إلغاؤها إن لم يكن إلغاء تاماً – كما فعلت فرنسا فى الجزائر والدول الفرانكفونيه (المستعمرات الناطقة باللغة الفرنسية) – فعلى الأقل تستبدل بها اللغة العامية أو اللهجات المحلية فى الأدب واللغة الانجليزية فى التعليم الجامعى والدراسات العليا ، بزعم أن يظل الطالب على اتصال دائم بأحدث التطورات فى العلم الذى يدرسه ؛ كما لو كان الاستعمار "الرحيم" يريد لنا التقدم ومنافسته فى ميدان العلوم منافسة حرة شريفة. والحقيقة التى لا تخفى إلاّ على البلهاء ، ويتعامى عنها الخونة العملاء هى أن الغرب الاستعمارى كان ولا يزال يريد تقطيع أواصر العرب أبناء الحضارة الإسلامية ، وتمزيق الوحدة الثقافية ليسهل عليه الاستيلاء على البلدان العربية المشتتة ؛ لأن الذئب يطلب الشاة المنفردة.

ومن الناحية الأخرى ، فإنه يبغى إبقاءنا فى سجن التخلف العلمى ، فلا نحصل إلا على ما يسمح هو بإعطائه لنا من النافذة الضيقة فى جدار السجن العلمى الذى تقيمه حولنا اللغة الأجنبية ؛ لأنه يعلم أن الطفل يفكر بلغة ثقافته ،

فعندما يُعطَى العلم بغير لغة قومه ، فإنه يحس بالغربة نحوه ، ويعجز عن التقدم والإبداع فيه ، وهو ما نراه محققاً الآن ؛ فبينما لم نستطع فى مصر والبلاد العربية التى تدرس العلوم فى جامعاتها باللغات الأجنبية أن نحقق أى طفرة علمية ، نجد أن اليابان التى ظلت محتفظة بلغتها القومية المتخلفة – التى لم تصل بعد إلى مرحلة اختراع الحروف – قد حققت تقدماً علمياً باهراً ، وكذلك إسرائيل التى أحيت اللغة العبرية من قبر الماضى السحيق ؛ حيث كانت هذه اللغة عند إنشاء دولة إسرائيل بمثابة "حفريات" أو آثار تاريخية ، فإذا بها تصبح لغة عصرية تُكتب بها العلوم والآداب بعد قيام دولة إسرائيل التى فرضتها لغة قومية لشعب إسرائيل ، ولغة رسمية تدرس بها العلوم إجبارياً فى الجامعة وما بعد الجامعة.

وقد واصلنا فى مصر السير على هذا المنحدر ؛ فأصبحنا نسمح بالتدريس باللغات الأجنبية (الانجليزية والفرنسية والألمانية) فى المدارس الابتدائية والإعدادية والثانوية ، أعنى فى التعليم قبل الجامعى ؛ فيما يسمى بمدارس اللغات ، وهى بدعة تغريبية لا توجد فى أى بلد آخر ، وخطورة هذه البدعة هى تهديد الهوية الحضارية للمجتمع المصرى وتمزيق وحدته الثقافية ؛ وذلك لأن الأطفال والشباب المصريين الذين يتلقون تعليمهم الأساسى بلغة أجنبية ، سوف ينشأون على الانتماء للثقافة التى تلقوا تعليمهم بلغتها ، ومن ثم سوف يكونون منتمين إلى الثقافة الغربية ، منفصلين عن ثقافة وطنهم مصر ؛ أى الثقافة العربية الإسلامية.

ولما كان هؤلاء الأطفال هم – دون أدنى شك – أبناء علية القوم أصحاب النفوذ ، فمن اليقين أن هؤلاء الأطفال المنتمين للثقافة الغربية سوف يشغلون عندما يكبرون كل المناصب القيادية ومراكز صنع القرار فى مصر ، خاصة فى المواضع الحساسة لسلامة وأمن الوطن ، ومن ثم فسوف يواصلون طريق التغريب وهدم أساس وحدة المجتمع ، خاصة والحكومة المصرية لا تبذل أى جهد حقيقى فى مراقبة التعليم فى تلك المدارس خاصة فى المناطق "الراقية" (؟!) جداً.

وعلى سبيل المثال ؛ فقد اشتكى أحد الآباء المصريين – وهو مسلم الديانة – أن ابنه الطفل الصغير الذى يتلقى تعليمه الابتدائى فى إحدى مدارس اللغات الأجنبية ، يقوم برسم علامة الصليب على صدره ووجهه قبل أن يتناول طعامه على المائدة ، فأصيب الأب بالذهول ، وسأله لماذا يفعل هذا ؟ فأجاب الطفل ببراءة أن المُدرسِّة قد علمته هذا !!

علينا أن ننتبه أن هذا الطفل قد يصبح يوماً ما وزيراً للتعليم ، أو الثقافة أو الخارجية أو حتى وزيراً للدفاع ، أو قائداً مرموقاً فى قوات الجيش ، فلنفكر ولنتأمل فيما سيصيب مجتمعنا فى ظل هذه الفوضى التعليمية التى لا مثيل لها فى أى بلد آخر.

وأظن أن جميعنا مازال يذكر قصة مدير المدرسة الفرنسى الذى رفض دخول طالبات مصريات مسلمات الديانة يعشن على أرض مصر . رفض دخولهن المدرسة بغطاء الرأس الإسلامى (عام 2002م) ، وفشلت جهود والد الطالبات

وولى أمرهن فى إثناء المدير الفرنسى عن قراره ، ثم تراهم يتحدثون – فى وسائل الإعلام – عن دولة ذات سيادة على أرضها !!

إن "المدرسة" هى المصنع الذى ننتج فيه المواطن المنتمى إلى وطنه ؛ لأنها أهم مؤسسة اجتماعية - بعد الأسرة - تتولى نقل ثقافة المجتمع عبر الأجيال ؛ أى تتولى توريث "الهوية" الحضارية للأمة ؛ فإذا تأملنا فى نظامنا التعليمى لوجدنا أنه ينتج ثلاثة "أنواع" من المواطنين ، أى يقوم بنشر ثلاث ثقافات متباينة:

أ – التعليم الأزهرى ويقوم أساساً بتدريس العلوم الدينية الإسلامية أى نشر الثقافة الإسلامية ، وهذا النوع من التعليم كان الوحيد فى مرحلة ما قبل الاستعمار ومن ثم فقد كان المجتمع يتميز بوحدة ثقافية معبرة عن هويته الحضارية والتعليم الأزهرى يتبع إدارياً شيخ الأزهر.

ب- التعليم المدنى الحكومى التابع لوزارة التربية والتعليم ، وهو التعليم الأكثر شيوعاً وينخرط فيه الغالبية العظمى من الأطفال ؛ المواطنين الصغار.

وما أريد لفت النظر إليه – هنا – أن وجود هذين النوعين من التعليم لاشك فى أنه يشير إلى ازدواجية "الهوية" ويعمل على تشويهها. ويرجع هذا فى الأساس إلى أن التعليم الحكومى نشأ – أصلاً – فى ظل الاحتلال البريطانى لمصر ؛ حيث كانت الإدارة الانجليزية تريد تخريج طائفة من الموظفين الذين يديرون للسلطة الانجليزية المصالح والمؤسسات الحكومية.

هكذا صار التعليم الحكومى أو الرسمى فى ظل هذا الوضع منقسماً إلى نوعين: تعليم أزهرى أو دينى وتعليم حكومى أو مدنى ، وهو يعمل على إنتاج نمطين من الثقافة أو نوعين من الهوية مشيراً بهذا إلى الصراع الثقافى أو تشويه الهوية ؛ الذى كان الاستعمار يريد إضرامه فى بنيان المجتمع.

هل نريد مثلاً واضحاً – فى ميدان التعليم – للعمل على تشويه الهوية لصالح التغريب ؟! لقد استقدمت وزارة التربية والتعليم لجنة من الخبراء "الأمريكان" لتطوير المناهج الدراسية ، فقام هؤلاء الخبراء الأجانب بتطوير مناهج الجغرافيا والتاريخ والدين (التربية الدينية) فى مرحلة التعليم الابتدائى والإعدادى (مرحلة التعليم الأساسى).

ولما كانت هذه المواد الدراسية هى التى تشارك بالنصيب الأكبر فى تعريف الطفل بهويته الحضارية ، فعلينا أن نفهم فى أى اتجاه يسير التعليم فى مصر ؛ لأننا نعلم – يقيناً – فى أى اتجاه ستكون نصائح أو أوامر الخبراء الغربيين. ماذا سيقولون – مثلاً – للطلبة فى منهج التاريخ

عندما يتناولون الحروب الصليبية وشخصية البطل "صلاح الدين الأيوبى" ! !

جـ- ثم جاءت بدعة مدارس اللغات التى تدرس لأطفال مصريين العلوم والمناهج الدراسية المتنوعة بلغة أجنبية ، بل ويتم تدريس منهج "اللغة العربية" ؛ اللغة القومية للدولة باعتبارها لغة أجنبية. أليس فى هذا انتهاء للسيادة السياسية للدولة ؛ حيث اللغة هى أهم مؤسسة اجتماعية تشد أو تمسك بنيان الدولة ؟ ألا تعد هذه البدعة تهديداً مستقبلاً للأمن القومى ، خاصة مع ضعف قبضة الدولة المصرية على مثل هذه المدارس والهيئات الأجنبية العاملة فى مصر ، مع أساطير الانفتاح وأوهام العولمة والحضارة الإنسانية الواحدة ، وغيرها من خرافات وأكاذيب التغريب.

وأصبحنا نرى الآن فى كل الشوارع – حتى فى المدن الصغيرة بل والقرى – اللافتات وأسماء المحلات تكتب بحروف لاتينية لترسم كلمات عربية ، لتعيد إلى أذهان من يتأملون ذكرى التجربة التركية البائسة.

بل وصلنا الآن إلى مرحلة "التلوث" اللغوى حيث نسمع لغة ، لا هى عربية ولا هى أجنبية ، وإنما هى هجين مشوه من الرطانة ؛ يسمونه "اللغة الشبابية" وهى أول مرة فى التاريخ نسمع عن لغة تنسب إلى مرحلة من العمر ، وهذا الهجين أو الرطانة المشوهة غير المبينة تشير – دون أدنى شك – إلى التلوث الثقافى أو تشويه الهوية الذى يغزو مجتمعنا ، مقترباً من أساس وحدتنا الثقافية ليفجر الوطن! !

٥- ضرب الانتماء العربى الإسلامى ، والسخرية من الأخوة الدينية وتشجيع الانتماءات العرقية أو السلالية ، والحركات الانفصالية ، أى ما يمكن تسميته بالنزعة "الشعوبية" التى ضربت دولة الخلافة العباسية – عند بلوغها أوجها – فى مقتل! !

(جـ) نخبتنا الحائرة تبحث عن هوية "ضائعة"

كانت هذه هى أهم محاور حرب "التغريب" التى شنتها أوروبا الغربية علينا خلال مرحلة الاستعمار ، ولكن أهم عمل قامت به هو تكوين "جيش التغريب" من أبناء نخبتنا ؛ الذين يقومون بأداء الأعمال التى يريدها الاستعمار – على محاور القتال سالفة الذكر – وهم الذين تضعهم السلطات الاستعمارية فى مراكز صنع القرار ، ليتولوا تنفيذ السياسات الرامية إلى تغريبنا ، أى إبعادنا عن هويتنا الحضارية لإبقائنا فى سجن التخلف.

وبدأت النُخبة – التى غُسلت أدمغتها من قيم ثقافتنا الأصلية – تبحث لنا عن هوية ، وكان السؤال ما هو انتماء مصر ؟! وبالتالى ما هو الطريق الذى ينبغى أن تسير فيه لإنجاز نهضتها وتحقيق التقدم ؟ كان هذا هو السؤال فما هى الإجابة ؟!

(١) النزعة الأوروبية (مصر قطعة من أوروبا)

كانت أول إجابات النخبة الخاطئة هى "أوروبا" . التى لخصها الخديو اسماعيل فى قوله "مصر قطعة من أوروبا". هذا هو الانتماء الذى يجب أن يكون وهذا هو الطريق الذى يجب أن نسير فيه : علينا أن نتخذ من أوروبا مثلاً أعلى نحتذيه ، وأن نبذل جهدنا فى جعل المجتمع المصرى شبيهاً بالمجتمعات الأوروبية حتى لتبدو مصر كأنها دولة من أوروبا. كان هذا هو "التغريب" الصريح العلنى.

لقد بدأ الباشا الألبانى الجبار "محمد على" ؛ جد الخديو إسماعيل السير على طريق تحديث مصر ، فأرسل البعوث – إلى فرنسا خاصة – للحصول على العلم والخبرة الأوروبية اللازمة لتحديث المجتمع المصرى ، واستطاع بقبضته القوية على الشعب تكوين جيش قوى ، مستفيداً من صبر وجَلَد وطاعة المقاتل المصرى الذى وصف بحق بأنه "خير أجناد الأرض". وبدأ "محمد على" الغزو لتكوين الإمبراطورية المصرية الكبرى التى كان يحلم بها ، وما كانت دول أوروبا المتقدمة لتسمح لدولة عربية إسلامية ، مختلفة عنها فى الهوية بمنافستها فى الصراع الإمبراطورى الاستعمارى للسيطرة على العالم. إن أوروبا كانت تستخدم "محمد على باشا" لضرب الخلافة العثمانية الممثلة الرسمية للحضارة الإسلامية ، فكانت تساعده وتقويه ليقضى على سلطان المسلمين ، ولكنها لم تكن لتسمح أبداً بقيام دولة إسلامية جديدة مركزها مصر ، تعارض المصالح الغربية وتتناقض قيمها مع قيم الغرب.

اتحدت الدول الأوروبية رغم اختلافها وتصارعها السياسى ، بل حروبها ضد بعضها ، خاصة بريطانيا وفرنسا . . اتحدوا جميعاً ضد "محمد على باشا" ؛ ضد هذه القوة العربية الإسلامية الناشئة ، والباحثة عن مجال حيوى لإمبراطوريتها المنشودة.

إن محمد على باشا وأنصار التغريب من بعده لم ينتبهوا إلى أن أوروبا الغربية – على اختلاف دولها السياسية – تعتبر أن الإسلام هو العدو التاريخى لها ؛ إنه العدو الذى كوّنت حضارتها ، وأنجزت تقدمها من خلال الصراع معه ، إلى أن تخلّف فانتصرت عليه عندما تقدمت.

هذا هو جوهر "هويتها" الحضارية الذى أفضنا فى وصفه من قبل ، ولذلك انتهت مغامرة "محمد على باشا" وأحفاده من بعده إلى الاحتلال البريطانى لمصر حيث واصلت الحضارة الغربية المسيحية ممثلة فى السلطة الإنجليزية فى مصر .. واصلت تكسيح مصر ، والقضاء على أية احتمالات لنهوضها بانتهاج سياسة التغريب التى أشرنا إلى أهم معالمها.

ولا تزال أكثرية النخبة المصرية – منذ بدايات القرن العشرين وحتى الآن – يراودها حلم الانتماء إلى أوروبا ، والالتحاق بالغرب المتقدم ، فى جهل تام بحقائق التاريخ ، وبحركة عمياء خارج الزمن والمكان ؛ أى فى فراغ الأوهام والأساطير ابتداءً من سلامة موسى "وبدايات" طه حسين ، مروراً بلويس عوض ، وانتهاءً بالحداثيين المعاصرين ، الذين يعدون بحق "حثالة" تيار التغريب إذ يجمعون بين الجهل والتعصب الأعمى والغرور ! !

قالوا قديماً: "الحق ما شهدت به الأعداء" ، فإذا كانت قوى الغرب الاستعمارى تنظر إلينا – وهم أعداؤنا الذين يدققون النظر فينا بحثاً عن مواضع الضعف ليزيدوا اتساعها ، ومجالات القوة ليضيقوها – إذا كان هؤلاء يرونك عربياً مسلماً ناظرين إلى هويتك الحضارية ، فلماذا لا تعرف أنت نفسك ، ولا تتحسس مواضع خطوك وأنت تسير على طريق المهالك ! !

ولا تزال النزعة الأوروبية تواصل محاولتها الدءوب الحثيثة ، فها نحن نرى فرنسا تتودد إلى مصر لتجعل منها مركزاً للفرانكفونية (الدول الناطقة بالفرنسية) ، رغم أن مصر – كشعب – لم تنطق أبداً بهذه اللغة الغريبة علينا ، وتختار مصرياً ليكون أميناً عاماً لمنظمة الدول الفرانكفونية ، وتقيم احتفالية ثقافية باذخة لمدة شهر كامل فى القاهرة ؛ تشمل ندوات وحفلات وعروض سينمائية ومسرحية وتوزيع مطبوعات أنيقة ، وكل ذلك تحت عنوان جذاب "الفرنسيون يحبون القاهرة" ، رغم أن فرنسا هى التى أعطت إسرائيل أول مفاعل نووى ؛ مفاعل ديمونة الذى كان بداية نشاط البرنامج النووى الإسرائيلى ؛ الذى لا يشك أحد فى أنه يجعل القاهرة على قائمة الأهداف المطلوب ضربها بالقنابل الذرية الإسرائيلية ، إذا حُمَّ القضاء ولم يكن من التدمير بد ، ورغم أن فرنسا قد شاركت إسرائيل وبريطانيا فى العدوان الثلاثى على مصر ورغم ..... الخ.

إن هدف الاحتفالية الفرنسية فى مصر هو إقناع الشعب المصرى أن الفرنسيين يعرفون عن مصر أكثر مما يعرف أهلها ، وهذا صحيح لتفشى الجهل بتاريخ مصر بفضل التعليم السىء الذى تقدمه المؤسسة التعليمية المصرية ، وتخرج

من هذا الاقتناع بأن الفرنسيين يحبون المصريين ، وبالتالى مرحباً بهم فى القاهرة يحكمونها بدلاً من أمريكا أو إسرائيل ! ! !

ألم يحتفل "التنويريون" المصريون بمناسبة مرور مائتى عام على الحملة الفرنسية على مصر ؛ أى بمناسبة غزو فرنسا لمصر ودخول جنود نابليون الجامع الأزهر بخيولهم ، ليجعلوا منه اسطبلاً ومستودعاً للذخائر والأسلحة والمؤن. طبعاً هذه أول مرة فى التاريخ يحتفل فيها "مثقف" بمناسبة احتلال بلاده ، فلننظر إلى أى منحدر هّوّينا بتشويه "هوية" نخبتنا! ! !

عندما جاء الرئيس الفرنسى العام الماضى (2001م) إلى القاهرة ، لحضور حل افتتاح مستشفى قصر العينى الجديد "المستشفى الفرنساوى" ، الذى ساهمت فرنسا فى بنائه ،وكان لابد من مشاركة رؤساء الأقسام فى كلية طب قصر العينى فى حفل الافتتاح ، والتشرف بالترحيب بالرئيس المصرى وضيفه الكبير "جاك شيراك" ؛ رئيس جمهورية فرنسا. وفى هذه المناسبة الكريمة تم استبعاد أستاذة مصرية ؛ رئيس قسم بأقدم كلية للطب فى الشرق الأوسط ، مع أنها بموجب وظيفتها المحترمة الهامة تمثل قيادة علمية مشرفة ، والسبب أن هذه العالمة المصرية المرموقة ترتدى الملابس المحتشمة التى يسمونها بالإسلامية ، وخاصة غطاء الرأس ، وبالتالى أدرك القائمون على تنظيم الحفل أن "منظر" السيدة الفاضلة ، سوف يكون سيئاً فى "جو" الحفل الذى نريد أن نتباهى فيه بأننا قد صرنا مثل الأوروبيين الفرنسيين ، ولذلك تم التنبيه على أستاذة الطب بالامتناع عن حضور الحفل. انظر كم بلغ بنا التنكر للذات حتى نروق فى عين الآخر ، الذى لن يمنحنا إلا احتقاره! !

(٣) النزعة الشعوبية (الفرعونية)

وكانت الإجابة الثانية الخاطئة هى "فرعون": إننا أبناء الحضارة المصرية القديمة . . أبناء الفراعنة الذين أقاموا أول دولة فى تاريخ البشر ، وأسسوا أقدم حضارة بلغت حداً لم يبلغه أحد من قبلها ، وبعضهم يقول ولا من بعدها.

وأعتقد أن هذا الاختيار لم يكن بعيداً عن الاختيار الأول ، بل بالأحرى أن نقول أن "النزعة الفرعونية" كانت هى الوجه الآخر للنزعة الأوروبية ، رغم التعارض السطحى البادى لأول نظرة بين الدعوة إلى العودة إلى الأصل القديم

الموغل فى الماضى ، وبين الدعوة إلى اللحاق بركب التقدم "المعاصر" فى أوروبا.

وبيان هذا أن هدف الاستعمار – كان ولا يزال – هو نزع العرب من "هويتهم" الإسلامية ؛ لأنها هى مصدر شعورهم بالسيادة ، وأصل مقاومتهم للاستعمار الغربى ، فإذا كان الانتماء إلى أوروبا أمراً غير معقول ولا مقبول والاستعماريون الأوروبيون يحتلون البلاد ، وينهبون الثروات ويسيمون العباد المذلة والهوان ؛ فليخرج العرب من الإسلام بالارتداد إلى حضاراتهم القديمة ، التى كشف الأوروبيون عن آثارها وأعلنوا عن إعجابهم بها. ومع انتشار ثمرات جهود المستشرقين المشكورة فى الكشف عن حضارات البلاد العربية قبل الإسلام فى أوائل القرن الميلادى العشرين ، نشرت دوائر الغرب الاستعمارية وسط النخبة المثقفة من أبناء الأمة العربية الإعجاب بتلك الحضارات "الإنسانية" السابقة على الإسلام ، وشاعت الدعوات الشعوبية فى أرجاء الوطن العربى: الفرعونية والبابلية والأشورية والفنيقية والبربرية فى المغرب العربى.... الخ.

وبدت هذه الخطة الاستعمارية – حينذاك – حكيمة ومحكمة وقادرة فى وهمهم على تحقيق هدفهم النهائى لعدة أسباب:

١- ستجد النخبة المثقفة من أبناء العرب فى هذا الاتجاه إلى مرحلة ما قبل الإسلام قاسماً مشتركاً يجمعهم مع الأوروبيين ، الذين أعلنوا إعجابهم الشديد بإنجازات وأمجاد تلك الحضارات القديمة البائدة ، ومن ثم يحدث التقارب مع المستعمر الغاصب الذى كشف بفضل جهد أبنائه من المستشرقين عن "آثار" تلك الحضارات ، ويلتفت أبناء المستعمرات إلى فضل أوروبا ، وجهودها العلمية المشكورة ، واحترامها للحضارات الإنسانية ، ويتناسون الواقع المرير ونهب الثروات ، ويتمتعون بالقاسم "الإنسانى" المشترك الذى يجمعهم مع السادة الأوروبيين ؛ فهذا الإعجاب والافتخار بالحضارات القديمة يخفى فى باطنه إعجاباً بالغرب وشعوراً بالدونية إزاءه.

٢- سوف يُرضِى هذا الاتجاه غرور النخبة المثقفة فى هذه الشعوب العربية الإسلامية ؛ إذ سيقنعها بأنها كانت ذات حضارة سامية سامقة ، وأن لها تاريخاً مجيداً ضارباً فى أعماق الزمن ، وسابقاً على دخولها فى الإسلام ؛ فتعالج بهذا الشعور كبرياءها المجروح من التقدم الغربى الذى يقوم بإذلالها ، وأقدامه عى أرضها تنتهك سيادتها وكرامتها.

٣- ستشعر هذه الشعوب أن عليها لكى تستعيد مجدها الذى ضاع فى غياهب التاريخ أن تعود إلى ما قبل الإسلام ، حيث كانت صاحبة الحضارة ؛ وبالتالى سيبدو لها أن اعتناقها الإسلام ، ودخولها تحت سلطانه بالفتح "العربى" كان سبب تخلفها وانحدارها إلى هذا الحاضر المهين. ولكن الأزمة الحقيقية تكمن فى أن القيم الثقافية لتلك الحضارات القديمة قد ماتت ، ولم يعد لها وجود حقيقى فاعل فى وجدان الشعوب العربية الإسلامية المعاصرة ، وبالتالى فلن تستطيع تلك الحضارات القديمة البائدة أن تبث أى

إلهام مؤثر على نفوس الشعوب ، ومن ثم فلن تستطيع بعث أى نهضة ، ولن تجد النخبة الحاكمة والمثقفة سوى قيم الثقافة الغربية المعاصرة لتبثها فى نفوس تلغىالشعب ومؤسسات الدولة ، وبهذا يحقق التغريب هدفه النهائى وهو منع قيام نهضة حقيقية وبعث حضارى ينتمى إلى العروبة ويتخذ من الإسلام هوية.

وفى مصر تعالت أصوات العودة إلى حضارة الأجداد العظام ؛ بناة الأهرام وتم تصوير الفتح العربى على أنه غزو ، واحتلال من البدو الهمج لأرض مصر ذات الحضارة العميقة.

والآن مع التمهيد لعصر الإمبراطورية الإسرائيلية ، وفى ظل مفهوم التضليل المسمى بالعولمة . . يعود الحديث من جديد عن مصر القديمة وحضارة السبعة آلاف سنة. وقد وجدت النخبة "المستغربة" فى هذا الاتجاه المصرى الفرعونى دواءً يشفى كرامتها المجروحة ، وفى نفس الوقت غطاءً يخفى خيانتها المفضوحة ؛ فإن "الفرعونية" ستار جيد يتخذ صورة العلم والتعمق فى التاريخ ، ويحجب الارتداد عن الإسلام والتنكر لمعتقدات الشعب ، وأهم من كل ذلك أنه يضع دخاناً كثيفاً على العمالة للغرب ، والتعاون المثمر – أو بالأحرى الاستثمارى – مع مراكز الأبحاث التابعة والخاضعة لمخابرات الدول الكبرى ، وعلى رأسها بالطبع الولايات المتحدة الأمريكية.

وفى الحقيقة إن هذه الدعوة إلى "الفرعونية" تعد – دون أدنى شك – خطيئة علمية وخيانة وطنية ، بل جريمة كبرى فى حق مستقبل هذا الشعب. فأما الخطيئة العلمية فهى أن الحضارة المصرية القديمة (الفرعونية) – على عظمتها غير المسبوقة واعتراف الجميع بإنجازاتها العلمية – قد ماتت ، فهى من الحضارات البائدة التى اندثرت ولم تعد قائمة ، إلا فى الآثار وبعض الأشكال والطقوس الاجتماعية التى تسربت وتحورت فى نسيج الحضارة الإسلامية التى دخل المجتمع المصرى فى هويتها. إن موت الحضارة المصرية القديمة (الفرعونية) هو حكم التاريخ القاطع ، فلم تعد القيم المصرية القديمة (الفرعونية) تشكل وجدان المصرى المعاصر ، ولا سبيل بالطبع إلى إحيائها ؛ لأن إحياء الموتى من قدرة الله وحده ، والفراعنة أو المصريون القدماء لن يقوموا مرة أخرى إلا يوم يبعث الله من بالقبور. إن الموت المؤكد للحضارة المصرية القديمة (الفرعونية) هو حكم الوجدان الشعبى الذى لا يشوبه أى ظل من الشك ، فليس هناك أحد من المصريين – الآن – يريد العودة إلى تعدد الآلهة ، والجميع على سبيل المثال يعتبرون قصة "أوزوريس وإيزيس وست" مجرد أسطورة أو حكاية خرافية لا معنى أو حقيقة لها ، ولا أحد بالطبع يريد بناء المسلات كرمز لعبادة الشمس أو حتى بناء الأهرام.

وإذا سألنا من هم الأبطال الحقيقيون فى "رؤية" الوجدان الشعبى ؟! إنهم الأبطال الذين تحكى السير الشعبية والملاحم قصصهم – التى كان المغنى الشعبى

يحكيها للناس على الربابة فى المقاهى والحقول عند السهر – إنهم "سيف بن ذى يزن" و"الظاهر بيبرس" ، بل "عنترة بن شداد".. إنهم الأبطال العرب والمسلمون ، فلا أحد يحكى عن معركة قادش وبطولة رمسيس الثانى ، ولا حتى كفاح أحمس لطرد الهكسوس. إذن لقد ماتت الحضارة المصرية القديمة ، ولم يعد أحد من المصريين – الآن – يستجيب وجدانه لقيمها وأبطالها.

والفتح العربى لم يكن احتلالاً أجنبياً لمصر ، بل كان حركة تحرير خلصت الشعب المصرى من نير الاستعباد البيزنطى (الرومى الشرقى) ، حيث كانت مصر ترزح تحت احتلاله شديد الوطأة ، ولذلك رحب الشعب المصرى بهؤلاء "الغزاة" العرب ، وساعدهم على فتح مصر خلاصاً من قهر الروم.

والشعب المصرى – حينذاك – أى عند الفتح العربى الإسلامى لم يكن فرعونياً أى مصرياً قديماً ،بل كان شعباً مسيحياً يناهض الاحتلال الرومانى باتخاذه مذهباً دينياً مسيحياً يخالف المذهب الدينى المسيحى الذى كانت الدولة البيزنطية تريد فرضه على الشعب. وهنا أيضاً يتبين لنا ما سبق أن قلناه أن الدين يكون هو المُعبِّر عن الهوية الوطنية أو عن القومية.

لذلك يعد من الخطايا العلمية الخبيثة أن يتكلم بعضهم الآن عن الاحتلال العربى لمصر ، أو كما يتساءل الأستاذ/ محمد بدوى فى مقال له بجريدة أخبار الأدب (العدد 398 بتاريخ 25 فبراير 2001) بعنوان "تأملات فى سؤال الهوية – هل فقدت مصر هويتها بدخول العرب؟!"

هذا هو العنوان الذى وضعته الجريدة على غلافها ، وفى داخل العدد على الصفحة رقم 32 التى كُتب فيها المقال ، يضعون عنواناً آخر هو "الفرعونية وجود يشع فى الحاضر وليست ماضياً متحجراً".

فالكاتب يريد أن يقنعنا بخطأ كل المؤرخين المحترمين – وعلى رأسهم "آرنولد توينبى" – الذين قطعوا بأن الحضارة المصرية القديمة قد ماتت ، ويريد منا أن نكذب وجدان شعبنا ، وأن نتغاضى عن كل الأخطاء والخزعبلات التى امتلأ بها المقال.. كل ذلك من أجل أن نكفر بالإسلام ، وأن نعتبر دخول الإسلام مصر خطأ تاريخياً يمكن إصلاحه بالارتداد عن الإسلام ، ورفض الانتماء إلى العرب ، وإعلان الانتماء إلى الموت أعنى الفراعنة.

لقد قرر كل المؤرخين المحترمين أن المصريين قد رحبوا بالفتح الإسلامى ، ثم تحول المصريون إلى الإسلام بملء إرادتهم وصميم اختيارهم ، وأصبح الدور التاريخى لمصر منذ ذلك الوقت وحتى عصرنا الحاضر هو الدفاع عن الإسلام الذى أصبح هويتها ، ولذلك كانت مصر هى القوة التى لعبت الدور الأكبر فى طرد الصليبيين من الشرق الإسلامى ، وكانت مصر هى الجبل الذى تحطم على صخوره الاجتياح المغولى الذى غزا العالم الإسلامى واقتحم عاصمة الخلافة بغداد.

بماذا تُفَسَّر هذه الحقائق التاريخية الدامغة التى تقطع بأن الدور التاريخى لمصر هو حماية الإسلام ؟! ألا يعنى هذا أن الإسلام قد أصبح هويتها أو شخصيتها الثقافية ؟! إن الأستاذ/محمد بدوى يعتبر كل هذه الحقائق مجرد مصادفات وظروف عارضة ، ولنتأمل فى جزء من هذه المغالطات التى امتلأ بها مقاله .

يقول: "لقد دخل العرب مصر فى لحظة لها ظروفها التى ينبغى دراستها ، حاملين مع سيوفهم وعمائمهم تصوراً جديداً للكون ، وقد قُدّر لهذا التصور أن يتجذر فى مصر ، ويصبح – مع الكر والفر ومرور الأيام وهجرات القبائل وانصهارها مع سكان البلاد – مهيمناً ، فتحول هؤلاء المصريون – الذين يمكن أن يكون آباؤهم قد عانوا تسلط الفاتحين – إلى مدافعين أشداء عن هذا التصور للكون". هكذا ؟! إنه يشكك فيما هو معلوم من التاريخ بالضرورة التى تفرض على الإنسان أن يقرأ التاريخ قبل أن يكتب فيه !!! وهو يقصد الدين الإسلامى عندما يقول "التصور الجديد للكون" !!!.

ويواصل قائلاً: "فمنحوه المدد المعرفى والثقافى ، وذادوا عنه فى أحرج اللحظات التى تعرض فيها للاجتياح ، وهى مفارقة للتاريخ – وما أكثر مفارقاته – بل نموذج لما يسميه "هيجل" مكر التاريخ ؛ حين يتحول الأحفاد إلى مقاتلين من أجل الدفاع عما قاومه أسلافهم".

فى هذه المقطوعة من الخزعبلات ، يتضح أن الكاتب لا يريد أن يصدق أن المصريين قد صاروا حقاً مسلمين من أعماق قلوبهم ، ومن ثم صار الإسلام هويتهم الحضارية أو شخصيتهم الثقافية ؛ ولذلك ذادوا عنه فى أحرج اللحظات ؛ لأن الإنسان لا يذود عن شىء فى أحرج اللحظات إلا إذا كان هذا الشىء ينتمى إليه !! إنه يبنى شكوكه أو أوهامه على أخطاء تدل على جهله بالتاريخ الذى يكتب عنه.

فبماذا يوصف مثل هذا الهراء ، ثم يحاول إرهابنا والتشويش علينا باسم "هيجل" حتى تمر أكاذيبه دون أن ننتبه !!! وما معنى "التجذر" الذى يذكره الكتاب وما معنى الانصهار إلا اكتساب الهوية أم أنه يكتب مالا يفهم؟!!

أما الخيانة الوطنية والتآمر ضد مستقبل شعبنا فتتمثل فى ظهور هذه الدعوة الانعزالية الرامية إلى فصل مصر عن بقية البلدان العربية. أفى الوقت الذى تحاول فيه كل الكيانات الصغيرة التجمع فى كيان كبير يضمها معاً ؟! وها نحن نرى الوحدة الأوروبية تتحقق ، والدعوة إلى وحدة الحضارة الغربية يعلو صوتها فى هذه الفترة من التاريخ الإنسانى ، التى وُصِفَت بأنها عصر التكتلات الكبيرة.. أفى هذا الوقت يأتى هذا الصوت النشاز الداعى إلى عودة الفرعونية ، والانحسار إلى الداخل للالتحام بالموتى!!

إننا إذا تأملنا فى المستقبل الاقتصادى لمصر ، والمجال المتاح للنمو ولتنمية الصادرات المصرية ، وتقوية اقتصاد مصر بالمشروعات المشتركة ، أليس العالم العربى والإسلامى هو المجال الحيوى لهذا الاقتصاد الذى يحاول القيام من كبوته ؟

إذن فعندما يطالبون بسجن مصر داخل حدودها – تحت شعار "الفرعونية" – فهم فى الحقيقة يطالبون بخنق الاقتصاد المصرى لإتاحة الفرصة للاقتصاد الغربى (الأوروبى الأمريكى) بلا أدنى منافسة ، بل للاقتصاد الإسرائيلى الذى يعتبر العالم العربى الإسلامى مجاله الحيوى الذى يستطيع أن يتنفس فيه ، لتكوين الإمبراطورية الإسرائيلية التى تتحرق شوقاً للظهور !!!.

(٣) القومية العربية منزوعة الإسلام

لم يقتنع الشعب المصرى أبداً بأكذوبة "مصر قطعة من أوروبا" ؛ لأنه يستحيل عليه قبول وهم أنه ينضم مع المستعمر الغاصب – الذى ينهب ثرواته ويعوق تقدمه – فى وحدة إنسانية تجمع القاتل مع المقتول أو الذئب مع الأغنام ، كما لم يلتفت أبداً لدعوة "الفرعونية" ؛ لأن انتماءه العربى كان أوضح من أن يشار إليه ، أو يشك فيه إلا جاحد للحق أو عدو للحقيقة ، ولذلك تفتق ذهن الغرب الاستعمارى عن هوية جديدة مخادعة هى القومية العربية منزوعة الإسلام.

العرب – طبقاً لهذا الوهم – أمة واحدة ، ومصر جزء من الأمة العربية ، ولكن الإسلام ليس إلا ديناً أو عقيدة اعتنقتها الأمة فى مرحلة من مراحل تاريخها ، وكان لها دين بل أديان متعددة قبل الإسلام ، وليس هناك أى مانع – بالطبع – من ترك الإسلام ، بل المطلوب هو تركه والتخلص من أغلاله حتى نتمكن من اللحاق بركب العصر.

هذه هى خلاصة فكر القوميين العرب فى القرن العشرين ، ابتداءً من قومية الشريف حسين الهاشمى لصاحبها السير "توماس إدوارد لورانس" ؛ الشهير باسم "لورانس العرب" ؛ رجل المخابرات البريطانية الذى خطط "للثورة العربية الكبرى" لتفجير جسم الإمبراطورية العثمانية الإسلامية أثناء الحرب العالمية الأولى ؛ ليسهل على الاستعمار البريطانى التهام أجزاءه العربية المتناثرة ، ومروراً بقومية حزب البعث العربى لصاحبها ميشيل عفلق وشركاؤه ، وانتهاء بقومية جمال عبد الناصر أو الناصرية.

كان شعار "القومية العربية" ماكراً وخداعاً ، فقد استطاع أن يستثير "الوجدان العربى" المتحفز للتحرر من سلطة الاستعمار الغربى ومن قهر الأتراك ، ومن ثم فقد ألهب حماس العرب جميعاً ، وانضوى تحت لوائه طوائف كثيرة وتيارات متعددة ، إذ خاطب هذا الشعار المراوغ كل طائفة بلغتها ، وتوجه لكل تيار بوجهه ، ولكنه – فى الحقيقة – كان شعاراً فارغاً بلا مضمون ؛ إذ أننا لو سألنا أنفسنا: ما هى القيم الثقافية التى يبثها هذا الشعار فى نفوس أتباعه ،

لاكتشفنا على الفور أنها قيم الحضارة الإسلامية ؛ إذ لم يكن للعرب - أى للبشر المعروفين بهذا الاسم أو بهذا اللفظ تحديداً - أى وجود فى التاريخ إلا بعد الإسلام ، ونشأة الحضارة الإسلامية ، لأن الثقافة العربية الجديرة بهذا الاسم ، والقادرة على صنع التاريخ وتكوين الحضارة هى التى خرجت من بين دفتى المصحف الشريف. لقد كانت "القومية العربية" شعاراً فارغاً ؛ فلم يكن من بد لملأ الفراغ إلا شخصية "الزعيم" ، فبدأت صناعة "الزعيم" ؛ البطل الأسطورى الملهم صانع التاريخ وقاهر الأعداء ، على طريقة صناعة "النجوم" فى السينما الغربية وهى صناعة أمريكية المنشأ كما هو معروف !!

إن الإسلام للعروبة بمثابة الروح للجسد ، فإذا نزعنا الروح مات الجسد وتحول إلى حفنة من التراب تذروها الرياح أو تدوسها الأقدام. وهكذا ماتت القومية العربية منزوعة الإسلام يوم الخامس من يونيو 1967 ، عندما ضربت الطائرات الإسرائيلية ثلاث دول عربية ، فسقطت الأساطير وتحطمت الأصنام ، ثم حصلت القومية العربية على شهادة الوفاة الرسمية مختومة بخاتم قوات التحالف الأمريكى التى جاءت فى مظاهرة عسكرية غربية الطابع ، أو بالأحرى صليبية الاتجاه لم يسبق لها مثيل لتحرير الكويت من غزو العراق.

هل يوجد - الآن - أحد من العرب يستطيع أن ينطق بذلك الشعار الأجوف دون أن يشعر بالخجل ؟!! ولذلك حاولت دوائر صناعة السياسة الغربية ترويج شعارات مثل "الشرق أوسطية" ؛ إذ لا يجرأون على إعلان حقيقتها الإسرائيلية ، وغيرها من الشعارات الفارغة المضللة مثل البحر متوسطية أو العولمة وكلها قناعات "للتغريب"!!

(د) الصحوة الإسلامية عودة الأمة إلى هويتها

هكذا لم يبق للأمة سوى "الإسلام" ؛ هويتها الحقيقية التى صنعت بها حضارتها التى لم تزل حية. وهذا هو أصل ما يسمى بالصحوة الإسلامية أو الإسلام الأصولى أو الإسلام السياسى.

وكما فشلت النخبة - عندنا - فى فهم وتفسير "سر" التعصب الدينى المسيحى لحضارة الغرب ، التى تبدو على سطحها المعاصر لا دينية ، فإنها كذلك تفشل فى تفسير "الصحوة الإسلامية" التى تنتشر فى أرجاء العالم الإسلامى من المغرب حتى أندونيسيا ، خاصة فى البلاد العربية ، فيصفونها بأنها "تشدد" أو "غلو" أو "تطرف" دينى ، وأهل التغريب التنويريون يرونها ارتداداً إلى ظلمات العصور الوسطى ، وهذا بالطبع من فرط جهلهم ؛ لأن العصور الوسطى كانت عندنا تسطع بأنوار الحضارة الإسلامية ، أما الظلمات فكانت تخيم على أوروبا التى يستقى منها هؤلاء المستغربون أفكارهم من نفايات شيخوختها التى تعانى منها الآن.

أما "الإسلاميون" الرسميون الحكوميون فإنهم يبذلون جهدهم فى نفى العنف عن الإسلام ، وإعلان أنه دين التسامح وينهى عن الغلو والتطرف ، ولكن السؤال الحقيقى الجدير بالالتفات حقاً هو لماذا هذه الصحوة الآن ؟!

والإجابة لأن الأمة قد أدركت بحسها العميق وبوجدانها الصادق أنها فى مواجهة حاسمة مع الغرب الذى لا يألو جهداً فى محاربتها لمحو هويتها ،وطمس معالم ثقافتها ، أى فى كلمة واحدة: القضاء على دينها ، ومن ثم فليس أمامها إلا التدرع بدينها ؛ مصدر قوتها للدفاع عن نفسها من الفناء.

إن الصحوة الإسلامية – على هذا النطاق الشعبى الواسع – ليست إلا نوعاً من الدفاع عن النفس ، أى عن الهوية الحضارية للأمة ، وقد أخفقت كل النظم السياسية فى حمايتها ، بل إن هذه النظم غالباً لا تفهم جوهر الصراع ؛ فلذلك تضطرب ردود أفعالها وتتصف استجابتها للتحدى الحضارى بالعشوائية والانتهازية والعَرَضية. أى الخضوع الأعمى لمقتضيات وتفاصيل الظرف الحال الآن دون امتلاك رؤية شاملة بعيدة المدى.

إن الحضارة الغربية تعانى فى أعماقها من الشيخوخة ، والعليمون ببواطن الأمور هناك من المفكرين والمخططين الإستراتيجيين يدركون هذا بوضوح ، ومن ثم فإنها تكافح من أجل البقاء ، وليس أمامها من سبيل سوى خلق الأعداء ، الذين يمثلون لها التحدى لتستجيب لهم بالقوة التى تحفظ تماسكها وتمنعها من التحلل والتهاوى ؛ بالضبط كالرجل العجوز الذى تعتريه أعراض الشيخوخة ، ويعرف أن موته قد أصبح وشيكاً ، لذلك فهو يبالغ فى إظهار قوته واستعراض عضلاته ليقنع نفسه أولاً والآخرين ثانياً بأنه لم يزل حياً نشيطاً.

وأعتقد أن الأحداث السياسية الحاضرة تقدم البرهان المؤكد لصحة هذا التحليل. ها هو جيش إسرائيل يصل إلى مرتبة أن يُعدّ ضمن أقوى الجيوش فى العالم ، ودولة إسرائيل – التى ليست سوى طليعة أوروبا الصليبية فى قلب العالم الإسلامى – تصبح واحدة من أكبر الدول المصنعة والمصدرة للسلاح ، وها هى فرنسا تُدخِل الجزائر فى الدوامة الدموية للحرب الأهلية ، وها هو الغرب يدبر أكبر مجزرتين بشريتين للمسلمين فى العصر الحديث ؛ أعنى حرب الخليج الأولى بين العراق وإيران ، وحرب الخليج الثانية المسماة بحرب تحرير الكويت أو عاصفة الصحراء ، وها هو أستاذ العلوم السياسية فى هارفارد ، وأحد المخططين للسياسة الأمريكية يتحدث عن حتمية صراع الحضارات منذ تسعة أعوام ، قبل إعلان الولايات المتحدة الأمريكية الحرب علي الإرهاب التى لا يخفى على أحد أنها تهدف إلى إخضاع العالم الإسلامى للهيمنة الغربية ، وها هى الأيام تثبت صحة كلامه ولا أقول صدق نبوءته ؛ لأن الرجل لا يتنبأ بل هو يصف ما يدور فى فلك التخطيط السياسى الأمريكى.

إن الأمة تدرك – بعمق – أنها فى مواجهة حاسمة مع الغرب ، وأنها توشك أن تدخل فى صراع دموى ولذلك فهى تستعد بحماية نفسها وراء درعها

الواقى أى دينها ، كما أن الغرب المسيحى يحاول استبقاء قوته بالعودة إلى أصل نشأته استعداداً للهجوم الأخير.

نحن عرب مسلمون ، وهو ما يعنى قولنا إننا مسلمون عرب. هذا هو التحديد الصحيح "لهويتنا" ، أو التعريف الصحيح لأنفسنا. هكذا يرانا الآخرون فى الغرب والشرق ، وهكذا يتعاملون معنا من اليابان حتى أمريكا ، وبهذه الصفة تحاربنا إسرائيل ، لا تقاتلنا لأننا فراعنة أو آشوريون أو كنعانيون أو فنيقيون بل لأننا مسلمون ، وهى تريد أن تهدم المسجد الأقصى لتبنى مكانه الهيكل اليهودى ، وخير وسيلة لتسهيل هذه "العملية" هى محاولة خداعنا وإخفاء حقيقتنا عنا ، أى نزع الإسلام منا أو نزعنا من الإسلام فلا ندافع عن المسجد !! إننا مسلمون عرب هكذا ينبغى أن ترانا نخبتنا لأن هذه هى حقيقتنا.

وإذا أردنا أن نتجاوز تخلفنا وأن ننجز نهضتنا ، فعلينا أن نسير فى الاتجاه الصحيح الوحيد الذى تفرضه "هويتنا" ؛ أعنى بناء حضارة إسلامية وهو ما يعنى إنشاء مجتمع يقوم على الثقافة الإسلامية ، وبالتالى تكون هذه "الهوية" هى القائد أو المَثَل الأعلى الذى يوجه حركة مجتمعنا فى كل الميادين ، والمرجع الذى نحتكم إليه عند مواجهة الأزمات والبحث عن حلول ، ومن ثم فيجب مراجعة كافة السياسات والاتجاهات الحاكمة لكل مؤسسات الدولة لتتوافق مع هوية الأمة ؛ من التعليم إلى السياسة الخارجية مروراً بالإعلام والاقتصاد والتشريع والأمن الداخلى ، وكل ما تعنيه كلمة دولة ، وبهذا تتحد وتندمج إرادة الأمة مع إرادة النخبة ، ويتوافق الفرد مع المجتمع ، وينتظم الكل فى سياق حركة واحدة ، فتنبعث الشرارة التى تبدأ التفاعل الخصب بين إمكانيات وقدرات الأمة إذ ينصهر الجميع فى حرارة "المثل الأعلى" الذى يضىء طريق التقدم.

يتساءلون دائماً لماذا نجحت اليابان فى إنجاز نهضتها الحديثة ، وأخفق العالم الإسلامى ، مع أن الاثنين قد شرعا فى الحركة فى وقت واحد تقريباً بالقرن التاسع عشر ؟! ما هو السر فى تشابه البداية واختلاف النهاية ؟! السر هو أن اليابان قد أدركت بعمق أنها فى صراع جوهرى مع الغرب الاستعمارى الذى يريد إبقاءها فى التخلف ، ومن ثم اتخذته "عدواً تاريخياً" – كما يتخذ المؤمن الشيطان عدواً – ولذلك لم ترض بالتشبه به ولا محاكاته ، بل نفرت منه ، فحافظت على دينها ولغتها وعاداتها وتقاليدها ، يعنى فى كلمة واحدة جوهر ثقافتها ، ولم تأخذ من الغرب إلا علمه والآلة لتستعين بهما فى بناء حضارتها الذاتية. هكذا نجحت اليابات بالمواءمة بين التحديث (العلم والتكنولوجيا) وقيم ثقافتها التقليدية كما قال "صمويل هنتنجتون".

ولكن ليس معنى دعوتنا هذه التبشير بإقامة مجتمع إسلامى متزمت دينياً ليس فيه أى قابلية للاختلاف أو قدرة على التنوع ، لأن الإسلام هو الدين الوحيد الذى يسمح للمخالفين له فى العقيدة بالعيش فى المجتمع المحكوم بشريعته ، بكامل حقوقهم الإنسانية ، بما فيها – أو بالأحرى على رأسها – حرية الاعتقاد والحق فى ممارسة الطقوس الدينية. والعهد الذى عقده الرسول (ﷺ) مع يهود المدينة

عندما هاجر إليها ، وأسس فيها أول دولة إسلامية ؛ ذلك العهد الذى يمكن أن يسمى بدستور المدينة هو النموذج الذى يجب احتذاؤه.

والتاريخ الإسلامى شاهد عدل على احترام الحكم الإسلامى لحقوق أهل الكتاب أو الذميين ، وهى كلمة تعنى أنهم قد صاروا فى ذمة رسول الله (ﷺ) وخلفاؤه فى الحكم من بعده.

ويكفى أن نذكر – على سبيل المثال فقط – محافظة أمير المؤمنين "عمر بن الخطاب" على كنيسة القيامة بعد فتح القدس ، ورفضه أن يصلى فيها حتى لا يتخذ المسلمون من بعده (رضى الله عنه) عمله سنة يقتدون بها ، فيأتون للصلاة فى كنيسة القيامة ، وبذلك ينفتح الباب لأزمة بين المسلمين والمسيحيين ، قد تنتهى بهدم الكنيسة أو تغيير طبيعتها المسيحية. لنقارن – الآن – هذا الموقف بما فعله الصليبيون ،عندما فتحوا القدس ، فحولوا مسجد الصخرة والمسجد الأقصى إلى كنيستين بل اتخذوا من المسجد الأقصى – بعد أن هدموا جزءاً كبير منه – مخزناً للذخائر والمؤن والأسلحة ، وحولوا قسماً منه إلى مساكن لفرسان الهيكل ، وجعلوا من سراديبه اسطبلاً للخيول ، وهو نفس ما فعله جنود الاحتلال الفرنسى فى حملة نابليون "العلمانى" على الشرق الإسلامى عندما دخلت خيولهم الأزهر فى عصر "التنوير" الغربى !!!

وخير وصف للوطن الإسلامى الذى ننشده ، وخير دليل على انفتاحه وتحرره الحقيقى هو ما قاله السياسى المصرى المسيحى "مكرم باشا عبيد" عندما وصف نفسه بقوله "أنا مسلم وطناً ونصرانى ديناً". وإذا كان الإسلام يسمح بالاختلاف الدينى معه فمن باب أولى أنه يسمح بالاختلاف والتنوع داخل إطاره.

(هـ) رسالة الأمة الوسط

ليس معنى كلامنا عن الصراع الحضارى المحتوم أننا نسعى إلى تكوين دولة إسلامية كبرى ذات ميل للتوسع الإمبراطورى ، والغزو ونهب الآخرين – كما فعلت أوروبا – بل معنى كلامنا أننا يجب أن نستعد ونهيئ أنفسنا لمواجهة الغرب الذى يتحفز – شئنا أم أبينا – للانقضاض علينا بموجب "هوية" حضارته أو طبيعة تكوين ثقافته عبر التاريخ ، وبسبب وصول حضارته إلى مرحلة الشيخوخة ، حيث بدأ الغرب يشعر بقرب نهاية دورته الحضارية ، رغم الازدهار البادى على السطح ، ولكنها تتحلل فى الأعماق. ومن ثم فالحضارة الغربية تحاول – الآن – أن تقوم بهجومها الأخير ، وذلك ما ألمح إليه "صمويل هنتنجتون" فى محاضرته "صدام الحضارات: الغرب ضد الآخرين "التى أنهاها بقوله : "بالنسبة

للمستقبل المنظور لن تكون هناك حضارة عالمية واحدة ، ولكن عالم من الحضارات المتعددة".

فهو بهذا القول يقضى على كل أمل لمن يتوهمون التحول إلى حضارة عالمية واحدة تشمل كل الإنسانية فى حضنها ، على الأقل فى المستقبل المنظور كما قال. وإذا كانت الحضارات – طبقاً لنظريته – لابد أن تتصادم ما بقيت مختلفة ، فالصدام أى الصراع الدموى قادم لا محالة ؛ بدليل أنه جعل عنوان المحاضرة الجانبى "الغرب ضد الآخرين". إذن فالغرب هو الذى اختار طريق الصدام ؛ طريق الحرب وإلا فما معنى "ضد" هذه ؟! إن الذئب هو الذى يريد ويقرر أن يأكل الحَمَل ؛ فلا أمل للحمل فى تجنب الهلاك إلا بإخافة الذئب ، أى إرهابه حتى لا يُقدِم على المحاولة ، إذا رأى أنها قد تكلفه حياته أى حياة الذئب نفسه ؛ أو أن يتوسل الحمل إلى طريقة يغير بها طبيعة الذئب وأخلاقه !! هذان طريقان لا ثالث لهما ، أما إن اعتمد الحمل على الثقة فى عقد اتفاق مع الذئب ، فإن الحمل مأكول لا محالة.

فما هى الوسيلة التى يتمكن بها الحمل من إرهاب الذئب ؟!

الوسيلة الوحيدة أمام الحمل لإرهاب الذئب هى أن يصاحب الجمل ، ويعيش فى حمايته فيخشى الذئب على نفسه ، إذ يخشى قوة الجمل وضخامة جسمه فيتحول عن أكل الحمل ويفكر فى شىء آخر.

فليس على مصر والعالم الإسلامى كله إلا أن يتقوى لتكوين القدرة على إرهاب الغرب المتحفز للانقضاض ، وهذه القوة المطلوبة هى – إذن – السبيل الوحيد لمنع الحرب ؛ لأنها ستجبر الغرب على الكف عن محاولة الغزو والبطش.

ولنتذكر – هنا – حكمة القرآن الكريم الذى أمر المؤمنين بقوله :

﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ (الآية ٦٠ من سورة الأنفال).

فالقوة المرهبة هى السبيل الوحيد لإقرار السلام ومنع الحروب ، لأنها تردع الطامعين عن الاعتداء.

ولن يستطيع العالم الإسلامى أن يصل إلى القوة الكافية لإرهاب الغرب إلا بإنجاز نهضته ، وإحداث طفرة فى تقدمه ، ولن يحصل على هذا إلا ببناء حضارته الذاتية وفى نطاق هويته ، أما السير فى طريق التغريب الصريح أو المقنع فإنه مفضٍ – لاشك – إلى وضع الحمل فى جوف الذئب.

وأما كيف يتم تغيير طبيعة الذئب ، أعنى طبيعة أو "هوية" الغرب فذلك بتغيير "دينه"، أعنى بإحداث تغيير جوهرى فى ثقافته ، أى بدعوة الغربيين إلى الإسلام.

والدعوة إلى دين الله لنشره فى جميع أنحاء الأرض هى المهمة التى ألقاها الله على عاتق الأمة الإسلامية ، فهى - إذن - رسالة المسلمين إلى الإنسانية بموجب هويتهم.

وها نحن نرى الإسلام ينتشر بسرعة متزايدة فى أوروبا وأمريكا ، بل ويجتذب على نحو خاص "الصفوة" من أهل الغرب ، مثل رجال السلك الدبلوماسى ، وأساتذة الجامعات والباحثين والكُتَّاب ؛ الذين يتاح لهم معرفة الإسلام فى بلاده ومن مصادره الأصلية ، وبعيداً عن تأثير ثقافتهم الموروثة.

ولعل من الأمثلة بالغة الوضوح على هذا الاتجاه الفيلسوف الفرنسى "روجيه جارودى"، والسفير الألمانى "مراد هوفمان" وغيرهما من مشاهير المجتمعات الغربية[7]. كذلك يجتذب الإسلام أعداداً متزايدة من الشباب ، ولعلنا نذكر جماعة "فرقان" فى أمريكا والمسيرة المليونية التى قامت بها. وتتواتر الأنباء عن دخول الغربيين فى دين الله أفواجاً ، فضلاً عن زيادة الهجرة إلى الغرب من أبناء البلاد الإسلامية. وكل ذلك يشكل خطراً على الحضارة الغربية مما أشعر صناع القرار هناك بضرورة التحرك السريع لمواجهة هذا الخطر "الإسلامى" الداهم الذى يغزو الغرب دون حرب ، بل بفضل التقدم الغربى الإنسانى الهائل فى وسائل الاتصال والنقل وانتشار المعلومات الذى صار يهدد بزوال الحضارة الغربية أى تغيير هويتها.

يقول الله مخاطباً الأمة الإسلامية ومحدداً لها رسالتها: ﴿ **كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۗ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ** ﴾ (آل عمران: ١١٠)

قوله "**أُخْرِجَتْ**" يعنى أمرناها بالخروج ، واختار هذه الصيغة "**أُخْرِجَتْ**" للإشارة إلى تحقق الخروج المأمور به ؛ فهذا – إذن – أمر إلهى صريح للأمة

(٧) جماعة سياسية تتكون غالبيتها من المسلمين السود (الزنوج) الذين تعود أصولهم إلى أفريقيا ، وهى تعارض مظاهر الظلم والتفرقة العنصرية فى المجتمع الأمريكى ، وتدعو إلى الإسلام ، وإن كانت تخالط دعوتها بعض المفاهيم الضالة. ولكن ما يعنينا – هنا- أن صوت "الإسلام" بدأ يعلو فى قلب المجتمعات الغربية وأن الآذان التى شرعت فى الإنصات إليه يزداد عددها يوماً بعد يوم خاصة بعد أحداث الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١م.

الإسلامية بالخروج إلى الناس ، أى إلى غيرها من الأمم بالدعوة. فما هو مضمون الدعوة؟!

﴿ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾

"**ٱلْمُنكَرِ**" هو الظلم لقوله (تعالى) فى الحديث القدسى **"يا عبادى إنى قد حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرماً"** يعنى قد منعت نفسى من الظلم ، فلا يقع فى عملى أى ظلم ، والظلم – إذن – هو الشيء الذى لا يراه الله فى عمله ؛ أى هو الشيء الذى أنكره الله ، فلم يعرفه عندما نظر إلى أعماله (سبحانه وتعالى) ، وقوله **"وجعلته بينكم محرماً"** ؛ أى لم أجعل فى شريعتى التى أنزلتها إليكم ظلماً لأن حكمى هو العدل نفسه.

وعندما سُئل النبى (ﷺ) عن تفسير قول الله (سبحانه وتعالى) ﴿ **وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ** ﴾ (الآية ٢٥ من سورة الأنفال) فقال (ﷺ): **"إن الناس إذا رأوا المنكر ، ولا يغيرونه ، أوشك أن يعمهم الله بعقابه"**(8) فسئل عن تفسير المنكر ومعنى تغييره فقال (ﷺ): **"إن الناس إذا رأوا الظالم ، فلم يأخذوا عليه يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب منه"**(9) فالمنكر هو الظلم ، وتغييره هو عقاب الظالم ، ومنعه من الظلم وهو واجب الأمة كلها.

وإذا كان "**ٱلْمُنكَرِ**" بهذا التفسير النبوى الواضح هو الظلم ، ففى المقابل يكون "**المعروف**" هو العدل ، فالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر معناهما الأمر بالعدل والنهى عن الظلم ، أى الحكم بالعدل ومحاربة الظلم.

إذن فمهمة الأمة الإسلامية أن تكون ضمير الإنسانية ، اى صوت العدل فى العالم ، وهذه المهمة ترجع أصلاً إلى إيمانها بالله ، لأن الله هو العدل ؛ لذلك قال "**وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ**" ، أى تعلنون إيمانكم بالله بالفعل والقول ، فعطف الحكم بالعدل ومحاربة الظلم على الإيمان ، أى لن تكونوا "صوت العدل" أو ضمير الإنسانية إلا إذا كنتم صوت الإيمان بالله الذى يدعو الناس جميعاً للدخول فى دين الله.

---

(٨) الحديث رقم ١٩٧٤ فى كتاب صحيح الجامع الصغير وزيادته للأستاذ/ محمد ناصر الدين الألبانى – الناشر: المكتب الإسلامى – بيروت – لبنان – الطبعة الثانية عام ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

(٩) الحديث رقم ١٩٧٣ فى المصدر السابق. والحديثان - أو بالأحرى الروايتان - عن أبى بكر الصديق (رضى الله عنه).

ولكن الدعوة لابد أن تصطدم بأصحاب المصالح أو أهل الظلم الذين لا يريدون عدلاً على الأرض ، ومن ثم فلابد من المواجهة والصراع والقتال ولابد إذن من الاستعداد بالقوة ، فأمر الأمة الإسلامية بإعداد القوة لإرهاب أعداء الله . . أعداء العدل الظالمين لتكون هذه القوة رادعاً لهم عن اقتحام الظلم. ولنتذكر مرة أخرى قوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ ۞ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ ﴾ (الأنفال: ٦٠-٦١)

لقد شُرع الجهاد لحماية الدعوة وحماية الحرية الدينية ونصرة المستضعفين فى الأرض ؛ الذين يُجبرون على ترك الإسلام وإلا قتلوا. إنه الاضطهاد الدينى الذى تسميه وسائل الإعلام الغربية الصهيونية على سبيل التضليل "التطهير العرقى" ، ولا يعنى هذا الاصطلاح إلا اضطهاد المسلمين ، وإجبارهم على تغيير دينهم وأسمائهم وإلا فالبديل هو القتل أو التشريد كما حدث فى البوسنة وبلغاريا وبورما.

خاطب الله الأمة الإسلامية معاتباً لها على تقاعسها عن الجهاد ﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴾ (النساء: ٧٥)

وخاطبنا ليعرفنا بهويتنا ، ويحدد لنا رسالتنا التى اختارنا من بين خلقه لأدائها فقال ﴿ وَجَٰهِدُواْ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴾ (الحج: ٧٨)

"شَهِيدًا عَلَيْكُمْ : " دليلاً لكم يقودكم على الطريق إلى رحمة الله.

"شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ: " أدلة للناس ، أى قادة للأمم ترشدونهم وتوجهون خطاهم على الطريق إلى الله.

ويقول الله (سبحانه وتعالى) راسماً دور الأمة الإسلامية فى صناعة التاريخ وتوجيه حركته ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ (البقرة: ١٤٣)

" **وَكَذَٰلِكَ** " : الكاف الأولى للتشبيه. وذا : إسم إشارة.

والكاف الثانية خطاب موجه إلى الرسول (ﷺ) باعتباره أصلاً للأمة.

والمشار إليه هو "الكعبة" التى جعلها الله قبلة للمسلمين يتجهون إليها عند الصلاة ، والكعبة هى مركز الأرض ، أى نقطة المنتصف لسطح الكرة الأرضية ، الموجودة فى قلب الدائرة بالضبط ، والتى لا تبدأ الدائرة إلا بها ؛ فمن نقطة المركز يبدأ رسم الدائرة ، ولا تكون الدائرة إلا بالانطلاق من نقطة المركز ، فهى أصل الدائرة أو مرجعها.

والمقصود كما جعلنا قبلتكم وسطاً فى الأرض ؛ لأن الكعبة هى مركز دائرة الأرض ، فإننا جعلناكم أمة وسطاً فى الناس ، أى أمرناكم أن تكونوا مركزاً لحركة الناس.. منكم تبدأ الحركة ، وإليكم تتجه الأمم الأخرى كما تتجهون أنتم إلى قبلتكم ، فأنتم قبلة الناس أو كعبة الأمم ؛ التى ينبغى على كل الأمم أن تتوجه إليكم ، وترفع إليكم أنظارها تطلب الحكم والرأى؛ فيجب أن تبدأ منكم حركة الناس ، وأن تكونوا المرجع الذى يحتكم إليه العالم "**لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ**": أدلة تقودونهم على الطريق إلى الله ؛ لأن الشاهد هو الدليل. ولا يتحقق هذا إلا بخروجكم إلى الناس حاملين رسالة الله إلى الإنسانية كلها ، باسطين حكم الله (العدل) على جميع الأرض ، فلا تكون الشهادة على شىء إلا لمن له صلاحية الحكم على الشىء بالصواب أو الخطأ ؛ فلا معنى لكونكم "**شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ**" ؛ إلا بأن تكون لكم صلاحية الحكم عليهم ، أى أن تكونوا المرجع الذى يُحتكم إليه.

إذا حققتم هذا كان رسول الله (ﷺ) "**عَلَيْكُمْ شَهِيدًا**" : دليلاً لكم.

حينذاك فقط تستحقون أن تُنسَبوا إلى الرسول ، وأن يكون الرسول مرجعاً لكم يعطيكم هويتكم أو يمنحكم اسمكم ؛ فلا يكون "**ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا**" إلا إذا اجتهدتم لتحققوا شهادتكم على الناس ، ولا يمكنكم تحقيق هذا إلا إذا كنتم "**وَسَطًا**" فى الأمم الأخرى ، وهو ما يعنى أن تكونوا وسط الناس ، وفى قلب الأحداث ، أى مركزاً لحركة الدنيا ، وقبلة ومرجعاً للأمم كلها.

وهذا ما فهمه العرب عن رسول الله (ﷺ) ، وآمنوا به فخرجوا إلى الناس ، حاملين رسالة الإسلام ، فكان الجهاد وكانت الفتوحات وولدت الحضارة الإسلامية.

وعلينا الآن إذا عرفنا هويتنا ، وفهمنا رسالتنا ، أن نستأنف ما بدأته الأمة على يد صحابة رسول الله (ﷺ) ، وأن نصل ما انقطع ، إذا أردنا أن يكون لنا مكاناً لائقاً جديراً بنا تحت الشمس ... إذا أردنا أن يكون لنا دور رائد فى التاريخ ، وإلا صرنا "أحاديث" يتدارسها علماء التاريخ والآثار فى الأجيال المقبلة كعاد وثمود وغيرها من الأمم البائدة... ! !

المؤلـف فــى سـطــور

تاريخ الميلاد : ١٦ فبراير ١٩٥٣م.

يعمــــل : طبيباً بالهيئة العامة للتأمين الصحى بجمهورية مصر العربية.

العنـــوان : جمهورية مصر العربية – محافظة القليوبية – طوخ.

منزل رقم ١٩ على الطريق السريع أمام نقطة مرور طوخ.

تليفـــــون : ٠١٣/٢٤٦١٩٢٦ المحمول/٠١٢٨٣٢٢٤١٢٥

* عضو عامل باتحاد الكتاب.

المؤلفات المنشورة :

١- **كلمة من الله:** رواية تاريخية تتناول حياة المسيح عيسى بن مريم (عليه السلام) فى سياق عرض تاريخى للعصر الذى عاش فيه – صدرت فى نوفمبر ١٩٩٣.
٢- **نحو فلسفة إسلامية للجمال والفن:** دراسة تؤسس لموقف إسلامى أصيل فى ميدان فلسفة الفن والجمال – صدرت فى عام ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م عن دار القلم – القاهرة (٣٦ شارع القصر العينى – ص.ب: ٦٥ مجلس الشعب – ت: ٣٥٥١١٠٥).
٣- **القرآن معجزة كل العصور:** مدخل إلى فهم النص القرآنى – دار الشعب – القاهرة (٩٢ شارع القصر العينى) عام ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م.
٤- **الماء فى القرآن والسنة والعلوم الحديثة:** دراسة فى الإعجاز العلمى للقرآن – صدرت عن مكتبة الدار العربية للكتاب – القاهرة (شارع عبد الله العربى – الحى السابع – مدينة نصر) ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.
٥- **التحديات التى تواجه العالم الإسلام:** البحث الفائز بجائزة الدكتور/ محمد شوقى الفنجرى لخدمة الدعوة والفقه الإسلامى – الناشر: دار الجميل – القاهرة عام ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.
٦- **المرضى فى رمضان متى يصومون ؟ وماذا يأكلون؟:** دار الشعب – القاهرة – نوفمبر ٢٠٠٠ – سلسلة كتاب الشعب الطبى.
٧- **لمحات من حياة نبى الرحمة:** المجلس الأعلى للشئون الإسلامية – القاهرة ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م.

تحت الطبع :

١- **عند الغروب:** رواية قصيرة.
٢- **من هو المسيح؟ إجابات جديدة عن أسئلة قديمة.**
٣- **الوسطية والبحث عن هوية:** البحث الفائز بجائزة جماعة الوسطية عام ٢٠٠٢م.
٤- **مرايا القدس :** دراسة لتاريخ القدس فى الشعر العربى.
٥- **الزواج العرفى – المشكلة والحل:** مدخل إلى فهم شعيرة الزواج فى الإسلام.
٦- **الجمال فى القرآن.**
٧- **الحريات العامة والحقوق السياسية فى السنة النبوية.**

٨- حرية الرأى فى الإسلام.

محتويات الكتاب